

الكتاب الثاني

المدينة اليونانية والانسان

حضارة اليونان الكلاسيكية (القرنان الخامس والرابع)

الحروب المدينة صراع بين عالمين خاضا غماره على غير تساو . فالامبراطورية الفارسية لم تعبى له كل قواها ، على الرغم من انها استهدفت من ورائه غير التوسع الاستعماري . اما اغريق شبه الجزيرة فقد وعوا وعياً ناماً ان مصيرهم يتقرر فيه . ولا يغالي أسشيل *Eschyle* حين يطلق هذا النداء الحار ، في يوم سلامين : « يا ابناء الاغريق ، اذهبوا ؛ حرروا الوطن ؛ حرروا أولادكم ونساءكم ومعابد آلهة آبائكم واجدادكم ؛ فانما القتال يقرر اليوم كل شيء » .

مهما يكن من الامر ، فان طرقي هذا الصراع امبراطورية واسعة الأرجاء من جهة ، ومدن غاية في الصغر من جهة ثانية ، عقدت بينها حلفاً سطوحيّاً فرضه الخطر المداهم ما لبث ان تفككت غداة نصرها الذي يتعدى كل منطق . ومهما يكن من الامر ايضاً ، فإن حضارتين تتقابلان : الاولى عشاء مع ان الجرح الذي أصابها ليس ببليغ ، والثانية تسير قدماً في وثبتها التي تتصف بالمزيد من القوة والسرعة .

انتصرت اذن المدينة اليونانية . فما عساها فاعلة بتوتها ؟ أو ما هي ، بتعبير آخر ، علائقها بالانسان ؟ ان الجواب النظري عن هذا السؤال لا يرقى إليه شك : تحالف المدينة والانسان في سبيل تعاون متبادل على السراء والضراء ، في تنمية متوازية ، ولكن المعضلة في معرفة مدى مطابقة الواقع لهذا المبدأ النظري .

الفصل الأول

الشواذب الداخلية

في الحضارة اليونانية المنصرة

انتهت الحروب اليونانية بانتصار عسكري أتاح تفتح الحضارة
مندوحة الحضارة اليونانية
اليونانية الكلاسيكية . ويبدو التطور طبيعياً لنا نحن الذين
نستقرىء البراعم من خلال الثمار الناضجة التي احتضنتها هذه البراعم أملاً ووعداً . وكان من شأن
انتصار الفرس ، لو قُيِّض لهم الانتصار ، ان يحد هذا التطور ، لا بفعل تعسف يلجأ إليه
خلفاء كورش عن قصد وعمد ، بل بمجرد ارتباط الاغريق بامبراطورية واسعة الأرجاء
يحكمها سيد اجنبي ، وبفعل الصعوبات البديهية التي كان من الطبيعي ان يوجدها وضع لا يقوى
اليوناني على تحمله . ويكفي ، للاقتناع بهذا الرأي ، ان ننظر الى مصير اليونان الآسيوية خلال
سبعين سنة تقريباً خضعت فيها للامبراطورية الفارسية التي فتحتها في منتصف القرن السادس .
فهي قد كانت ، حتى هذا التاريخ ، مركز الحضارة اليونانية المشع ؛ وحافظت بعده ، في
المرحلة الاولى ، على بعض الحيوية والازدهار ، أقله في بعض أجزائها . ولكن ما لبثت انوارها
أن انطفأت ، بعد ثورتها التي قمعها الفرس بكل شدة . وسيصبح من المحتم عليها ان تلتظر
الاسكندر حتى تنهض من الضربات التي كملت لها حينذاك . وما كانت اليونان الأوروبية
لتعرف مصيراً آخر ، لو انها غلبت على امرها في سلامين وبلاطيا . فإذا كانت ، على الرغم من
حريتها ، قد مزقت نفسها بنفسها بفعل جزع كياناتها المتحاسدة ، فكيف تتخيل ما كانت
ستسببه السيطرة الأجنبية فيها من هزات وأضرار وتقتيل .

أما وقد نجت اليونان من خطر الاستعباد ، فانها استعادت وحدة نطاقها العنصري ، غداة
الانتصارات الحاسمة التي أحرزتها في الحرب الميدية الثانية . فانتزعت من الضفط الفارسي القسم
الساحلي الأهل بمواطنيها في آسيا الصغرى . وعاضدت هؤلاء في أسواق البحر الأسود وأتاحت

لهم التوصل الى نوع من الاتفاق على الأقل مع سكان روسيا الجنوبية الأصليين . وسادت انتصار الزعماء المصريين على الملك الفارسي ، إذ ان انكسار المصريين لم يمنع مصر من ان تبقى مستقلة عملياً ومن ان تفتح ابوابها للتجار والرحالة اليونان . اما في المتوسط الغربي فلم يتدخل اغريق اليونان نفسها بقوة السلاح ، ولكن المستعمرات المؤسسة في العهد السابق قد توقفت ، على الاجمال ، الى ابعاد خطر الاعداء عنها . فردّ المستبدّون في سيراكوزا هجوم الساميين القرطاجيين على صقليا منذ السنة ٤٨٠ ؛ وهجوم الاترويين (الاتروسك *Etrusques*) بعد ذلك بزم قصير في كمبانيا . واستطاعت مرسليليا ان تؤسس أسواقاً تجارية جديدة في سواحل غاليا واسبانيا ، أو ان تعيد تأسيس القديمة منها . فحافظت الحضارة اليونانية في كل مكان ، ان هي لم تتوسع بعد ذلك ، على أهم ما بلغته وحصلته ، وأبعدت عنه الخطر الاجنبي المداهم . واستعادت في كل مكان حرية حركاتها واستطاعت ، في القرن الخامس ، ان تتطور وفقاً لسنة مصيرها الخاص .

لم يخلُ مصير الشعب اليوناني ، بأبعاد الخطر الاجنبي ، من الشوائب الداخلية . الحرية والتسلط
فبعد أن ترك الاغريق وشؤونهم ، نسوا أنهم مدينون الى اتحادهم بانتصاراتهم في الحرب الميدية الثانية . وبرهن السبارطيون الذين تسلموا ، باتفاق الرأي ، زمام القيادة العليا في اليونان البلقانية ، عن عزوفهم او عجزهم عن استثمار الانتصارات التي قادوا اليها ، خدمة للخير العام . فوقعت الوثبة الجسورة التي تقاعسوا عنها ، في آسيا الصغرى ومصر واليونان ، على كاهل الاثينيين خصوصاً الذين حلّوا محلهم بعد خورهم . أما في صقليا وإيطاليا الجنوبية ، فإن سيراكوزا ، بعد ان خاضت المعركة الحاسمة ، لم تتوان قط عن متابعة السير فيها حين دعاها الواجب الى ذلك .

بيد ان هاتين المدينتين ، أثينا وسيراكوزا ، انهما أعطتا درساً في العمل الجاهد وكرستا له خيرة قواهما ، فإن غيرتهما على الخير الجماعي لم تكن منزهة ومجردة عن الغاية . فهما ، يجرهما وراءهما المدن التي يستهويها الصراع ، وبتخريب المدن المستعبدة ، وبمساندة تلك التي يهددها الاجنبي ، انما استهدفتا جمعها تحت ادارتها لا بل ، قريباً ، تحت امرتها . فأستأمر بطوريات ونزعنا دائماً الى بسط المزيد من السيطرة عليها . فحلت محل السيطرة الأجنبية الزائلة سيطرة اخرى هي يونانية ولا شك في ذلك ولكنها تتناقل ويصعب تحملها يوماً بعد يوم ، بعد ان ان غلبت صفة التلقائية على الالتفاف الأول العام .

وحاولت مدن عديدة ، على نطاق اكثر تواضعاً ، ان تحقق لمنفعتها الخاصة ما حاولته أثينا وسيراكوزا على نطاق واسع . فالخلافاً حول الحدود ، والاحقاد بين الجيران والحسد التي انتهت أحياناً الى تصميم على التدمير ، كل ذلك لم يكن جديداً في العالم اليوناني . ولم يتوصل الخطر المشترك نفسه احياناً لخلق هذه المشاعر ، فما عسى الحال ان تكون بعد ان زال هذا الخطر . لقد خلا الجوّ لمنافسات لا يمكن التكفير عنها .

استهدفت المدن اليونانية جميعها ، كبيرة كانت أم صغيرة ، مثلاً أعلى واحداً ، هو الحرية . ولكنها فسرت هذه الحرية ، في آن واحد ، كاستقلال شخصي تام يفتت هذا الاتحاد الذي ، لولاه ، لحضعت لسيد أجنبي ، وكحق في التصرف بحري احقادها وفي ارواء غليل أطباعها من مدن يونانية اخرى . وسيكتب احد المؤرخين اليونانيين فيما بعد ، ما يلي : « لا أدري كيف ان البلوبونيزيين ، وهم اكثر الناس ميلاً الى حياة هائلة انسانية ، كانوا في الماضي دون غيرهم تنمعا بهذه الخيرات ؛ ولكنهم ، كما يقول « اوربيد » خاضعون أبداً للأعمال الشاقة والرمح في يدهم . » وأفضل تعليل في نظري هو انهم يهون كلهم السيطرة والاستقلال ، حتى انهم لا ينقطعون عن التعارك بعنف في سبيل النفوذ . ولا يصح هذا التفسير في البلوبونيزيين فحسب ، بل في كافة الاغريق ايضاً . « فاستهوا النفوذ والاستقلال » ، اي هذه الرغبة في امتلاك ما تريد ان نحرّم منه الغير ، هو احدى الميزات الرئيسية في سياسة المدن اليونانية ، واحدى الميزات التي طبعت الى حد بعيد حضارة هذه المدن في القرنين الخامس والرابع .

حالة الحرب حالة طبيعية كانت النتيجة المحتموة حروباً متعددة دائمة . فمئذ مستهل القرن الخامس حتى السنة ٣٣٨ ، قضت اثنيلاً اكثر من ١٢٠ سنة في الحرب من أصل مائة وأربع وستين ، أي اكثر من سنتين من أصل ثلاث . ولم تعرف ، خلال هذه المدة ، فترة سلم تعدت العشر سنوات .

لا شك في ان مثل اثينا قد يبدو خاصاً ومفرطاً اذا انها ، بتسلم قيادة الصراع ضد الفرس ، وبتأسيس امبراطوريتها ، قد تعرضت لشق الخصومات واضطرت لقمع الانتفاضات . ولكننا نرى ، اذا ما اخذنا الدور السياسي بعين الاعتبار ، ان هنالك نزعة عامة مماثلة على الاقل . اجل ، ليست هنالك بعد حروب تفرض على المدينة تعبئة جميع امكاناتها البشرية والمادية . فالمعارك لا تحصل عادة في فصل الامطار ، وكثيراً ما يقتصر الجهود الاثيني على تسليح خمسين مركباً حربياً تقريباً وارسالها لمدة اشهر الى البحر . ولكن هذا الجهود المحدود نفسه يؤدي عملياً مع ذلك الى تجميد هذه الطاقة وتدميرها البطيء أو السريع ، بفعل المخصصات التي تمنح الى عشرة آلاف بحار تقريباً يسحبون من نطاقات عملهم المنتج .

تقوم هنا اذن عقبة كداء في سبيل النمو الطبيعي لحضارة لم تكن الطبيعة سخية عليها ، على كل حال . فقد كرّس الاغريق للتقاتل فيما بينهم قسطاً كبيراً من القوى التي توصلوا الى تأمين استخدامها الحُر . ودفعوا بذلك ثمن الاستقلال الذي ما كانوا ، لولاه ، ليحققوا امكاناتهم الكامنة . ولكن هذا الثمن نفسه قد حال دون تحقيقها كلها او دون تحقيقها على النحو الضروري لتلفين الانسانية درساً فكرياً وفنياً ابهى من ذاك الذي لقنوها اياه .

الحروب : الاساليب والخسائر بالارواح
لما كان للحزب هذا المركز الهام في حياة الاغريق ،
اصبح من الواجب علينا ان نتصور ما كانت عليه حينذاك وكيف تخاض وما هي النتائج التي أدت اليها .

يجب الانغالي في ما تجر اليه من خسائر بالارواح . فلم يكن يمكن اية دولة يونانية ان تخوض هذه الحروب الطويلة لو ان هذه الخسائر بلغت ، بالنسبة للسكان ، الخسائر التي تبلغها الحروب المعاصرة . وليس مرد ذلك الى فقدان آلات التقتيل ، اذ ان القتل بمجد السيف أو بأسلحة الرشق ، ولو كان بطيئاً ، ليس بالضرورة عملية محدودة . فالسبب الرئيسي انما هو مفهوم المعركة وكيفية خوضها من جهة ، وعجز الدولة ، من جهة اخرى ، عن تجنيد كل الطاقات البشرية التي تستطيع نظرياً ان تتصرف بها .

ولكن يجب استثناء الحرب البحرية . فالرجال الذين يخاطرون فيها بحياتهم أوفر عدداً على وجه العموم ، لان البحارة ، وهم بالدرجة الاولى جذاًفون لا عدة لهم ، يجنّدون من الطبقات الاجتماعية الدنيا . ثم ان المركب الحربي المعتمد في هذه الحرب مركب ذو ثلاثة صفوف من المجاذيف يبحر برشاقة ، وقد زوّد في مقدمته « بمهاز » برونزي يحاول البحارة بواسطته شق مركب الاعداء . واذا ما حصل ذلك ، يغدو ركاب المركب المبقر في الماء لا زوارق نجاة لديهم ولا امل عندهم سوى التعلق بالحطام العائم . واذا قدر لهم النجاة من القتل بضربات المجاذيف ، يتركهم لمصيرهم كل من الهاربين على غير هدى المغلوبين على انفسهم ، والمنصرين الذين يعنون ، أول ما يعنون ، برفاقهم الاحياء والاموات . واذا ما هبت ريح هوجاء ، كثيراً ما تحدث الكارثة حتى للأسطول المنتصر الذي تتعطل مراكبه وتتحطم مجاذيفه وينهك بحارته فيذهب طعمة للعناصر الثائرة . فالحرب البحرية والحالة هذه اقل من الحرب البرية .

طيلة الشطر الاكبر من هذا العهد ، ووفقاً لسنة المعتقدات الدينية والشرف الحربي ، كما تشتم عليه خصوصاً الدولة العسكرية الاولى ، لا كيديون ، نظر الاغريق الى الحرب نظرتهم الى المباراة . لا ريب في ان تصادم جيشين متواجهين صفوفاً متعددة على حبهتين متوازيتين يسفر عن ضحايا كثيرة بفعل عناد المتحاربين وشجاعتهم التي تشيد بها الكتابات المدفنية والخطب .

ولكن ما ان تحرق الجبهة ويختل توزيع الجنود المشتركين في المعركة حتى يولّي المغلوب هارباً ، بينما لا يحاول المنتصر مطاردته . فعلى المنتصر الباقي في ساحة المعركة واجبات اكثر الحاحاً من استثمار النصر استثماراً عسكرياً سريعاً : عليه ان يشكر للآلهة نصرته وان يقوم نحو الاموات بالواجبات الاخيرة . فكما ان المصارع الرياضي الفائز يكرس تاجه للإله ، كذلك يعبر الجيش المنصور عن شكرانه بالاناشيد وقديم الضحية وجمع اسلحة العدو افتخاراً بالغلبة ، ويجمع جثث موته ويحتفل بجنائزهم احتفالاً يليق بنهايتهم البطولية . وعلى العدو ، اذا سلمت نيته ، ان يخضع لحكم الآلهة ويعترف بكسرتة ويلتزم هدنة لمجس موته واستلامهم .

ولكن هذه الاساليب غير ذات فعالية . فالهاربون يلجأون الى اقرب مركز محصن يستطيعون الدخول اليه ويتجمعون فيه ويستعيدون قوامهم بسهولة ، لا سيما وان الوسائل التقنية في ذاك العهد لا تسمح بفرض حصار قوي وان أقل سور يوقف افضل الجيوش طيلة اشهر كاملة . ويعتمد

المحاصر عملياً على المجاعة بنوع خاص ، عندما لا يجد خونة يسلمونه قسماً من السور . أجل قد تستنفد مؤن المحاصر ، ولكن مؤنه تستنفد أيضاً ، ولا مجال للاستعاضة عنها بمحسيلة غزو الارياف المجاورة . وتنتشر الاوبئة بين الجنود المعسكرين في الهواء الطلق . ويقترّب فصل الامطار أو تشق النجذات طريقها الى العدو . فيتوجب رفع الحصار ، اذا كان قد فرض ، ويجب العودة على البدء في السنة التالية .

يتضح ان حرباً على هذا الغرار ليست على الاجال دامية جداً . اما ما شذ منها عن هذه الوتيرة وعمل في قلب المعاصرين ، فمرده الى ظروف خاصة . من ذلك ان الاثينيين منوا بنكبة في صقليا في السنة ٤١٣ ، لان الجيش الذي قادوه حتى سيراكوزا لم يتمكن من النزول الى البحر للعودة الى اليونان . ومن ذلك أيضاً ، في السنة ٣٧١ ، ان اربعمائة مواطن سبارطي من أصل سبعمائة مجند ، ومن أصل ألفي رجل باقين على قيد الحياة ، قد استهاتوا باجمعهم في لوكترا ضناً منهم بالشرف القومي الذي يحظر عليهم الهرب والاستسلام .

بيد ان تحولات جذرية سبقو وطرأت على الحرب اليونانية في لوكترا وحتى قبل ذلك في السنة ٤٢٤ في ذيليون حيث أفني ألف هوبليت أثيني من اصل سبعة آلاف . وتزداد هذه التحولات وضوحاً مستمراً في القرن الرابع الى ان تصبح إلزامية في ايام فيلبوس المقدوني وابنه الاسكندر بنوع خاص . فيضمحل إذ ذاك التقيد بالمصطلحات التقليدية أمام الرغبة في فعالية تؤمن النتيجة . فتثبت المناورة المرنة تفوقها على تصادم جبهتين متواجهتين ؛ وتفضي أحياناً الى التطويق ، أي الى تدمير قسم من الجيش المكسور في ارض مكشوفة . ثم يطارد الغرمان الهاربين بعنف ويقضون عليهم او ينعونهم على الأقل من جميع شملهم . واعتمدت فيما بعد الآليات الفعالة المتقنة التي استخدمها دونيس السيراكوزي لأول مرة ضد القلاجيلين فأناحت فتع ثلم في الأسوار ينقض منها المهاجمون .

استهدفت المعارك البرية منذ ذاك التاريخ لا اثبات التفوق على العدو فحسب ، بل افناء قواته المنظمة أيضاً ، فكانت النتيجة ان مني المغاوبون بخسائر بالارواح أفدح منها في السابق . ففي خيرونيا مثلاً خسر الأثينيون ، وكان عددهم عشرة الاف ، تقريباً ، ألف قتيل وألف أسير ، مع أنهم لم يحملوا عبء المعركة الثقيل . ولكن الحرب ، بتحولها الى تصادم حاد يجعل أحد طرفي النزاع تحت رحمة الطرف الآخر ، قد أصبحت بالفعل بنفسه بالغة السرعة : لم يرض شهران مثلاً على الاعمال الحربية مع أثينا ، وسنة على الاعمال الحربية مع طيبة ، حتى استطلاع فيلبوس ، بعد انتصاره الحاطف في خيرونيا ، فرض سلطته على اليونانيين بأسرها . ولذلك يجوز القول ، بعد كل حساب ، ان حملة عسكرية منفردة ، في حرب هي إحدى مراحلها ، قد تؤدي بالنسبة للحرب كمجموع الى خسائر أكثر فداحة .

تسبب الحرب ، مع ذلك ، المزيد من الدمار والويلات الفظيعة .
الحرب : قانونها وويلاتها عرف القدماء وحببوا قانوناً يقضي بنقل السيادة المطلقة الى المنتصر

بمجرد انتصاره . وحين قام الخطباء الاثينيون يناقشون فيلبوس ويزعمون التمييز بين واقع الاحتلال والحق الشرعي بالملكية ، لم تنطل مغالطتهم على احد . وليس هذا التمييز ، اقله فيما يعود للأرض ، بتقديم العهد في حقوق الشعوب المعمول بها حالياً . غير ان الملكية في التاريخ القديم تتعدى الارض نفسها : فالمنتصر يغدو السيد بمجرد انتصاره ويصبح له الحق بالتصرف المطلق بالاشخاص والممتلكات المادية في البلاد التي يحتلها ، بمكنته التقتيل والهدم والحجز والاستهلاك والبيع على هواه . ومن حقه المشروع تقويض الابنية واحراقها دونما عذر أو حجة ، ولا يجدر به ان يحترم سوى الممتلكات المقدسة لان الآلهة يعاقبون الكافرين . اما الكائنات البشرية ، فمن حقه المعترف به ، نظرياً ، ان يفنيها دونما تمييز بين جنس وجنس وبين سن وسن . بيد ان فظاظة مثل هذا التقتيل الذي لا يجر اي مغن تحول دون الاقدام عليه . ولكن استعباد المغلوبين بطريقة أقل شذوذاً يسهلها وجود تجار يلحقون بالجيوش ويشترون الاسلاب ، بما فيها الاسلاب البشرية ، ويؤمنون نقلها الى اسواق خاصة . ويعني هذا العمل بوضوح ايضاً ، من حيث المبدأ ، حتى الناصر السامل على كل ما استطاع الاستيلاء عليه من اشخاص واشياء .

أما عملياً فنادر ما يطبق قانون الحرب هذا بحذافيره . فالمدن المفتوحة عنوة ، بعد مقاومة دويلة او غارت سدر المحاصرين ، نديلاً ، هي ضحايا الحروب العادية ، وقد سبق ورأينا ان عددها ليس بالعدد الكبير . ولكن هذا القانون واقع قائم ، ويكفي ان يلجأ اليه احد المتحاربين حتى يحتذي به الثاني ، عند أول فرصة ، ثاراً وانتقاماً . وهنالك ظرف واحد على الأقل يطبق فيه هذا القانون بصورة عادية ، اعني به ظرف اسرى الحرب الذين يلتظرهم الاستعباد كمصير طبيعي . وليس سوى اقامة السلم ما يليح لحكومتهم تحريرهم بتبديل الاسرى ، أو لاهاليهم واصدقائهم بمحاولة اقتنائهم بالمال . واذا ما فكرنا بغدبة الاسرى التي استمر العمل بها حتى القرن الثامن عشر ، لن تدهشنا هذه الذهنية كثيراً . وسننسأ ان نعيد لهذا القانون مفهومه النظري غير المحدود وتطبيقه العملي الواسع جداً ، حتى نقف على مدى الويلات التي سببتها الحرب في العالم اليوناني الكلاسيكي .

بيد ان المحارب ، الذي يبقى في منايا عن الغزو لا يمتنى بخسائر كبيرة نسبياً ، مع انه يعوض بمسحوبة عن نفقات جيشه ولا سيما عن المعجز في الانتاج بسبب فقدان اليد العاملة الجندة . امسا المغنم فالتقسيم الاكبر منها يندرج تبذيراً ، ويجب ان يقطع من القسم الباقي القربان الواجب تقديمه للالهة الذي تريد من اهميته ، ما بعد يوم ، رغبة في النفوذ والدعاوة . ونادراً ما تنتهي الحرب بالربح من الوجهة المالية . ولان تصبغ الحرب مصفحة رابحة مثلاً إلا بقيادة الاسكندر ، الذي ينقلها الى بلاد مردهر ، يجمعها ينفذون الاموال . فسبارطة التي طالما احزرت الانتصار تاول الانتصار لم تنل من الثروات قبل ، وكل ما سمعته من هذه الانتصارات انها استطاعت تأمين الانفاق على جنود جيشها الذين هم موادها . دون ان يقوموا الى جانب الجندية بأي عمل مأجور . ولم تستطع اذنا ذلك ، بعد قمعها ثورة ساموس ، ان تستعيد مسأافقته ، على الرغم من تعويض

حرب فرضته عليها واستوفته طيلة خمسة عشر سنة تقريباً . أجل ، قد اتاحت لها قوتها ، من جهة ثانية ، تأسيس امبراطورية غدت خزانها وأثرت تجارتها . ولكن هذه الامبراطورية لم تعمر طويلاً .

اما الاراضي التي يجتاحها العدو فتعاني الأمرين . وليس نصيب الارياف ، على الصعيد المادي ، سوى نهب المحاصيل أو اتلافها وتحطيم الاشجار المثمرة وتدمير الابنية . اما في المدن ، حيث يلتجئ الفلاحون وراء التحصينات ، فتفتك الاربطة والحرمات بالسكان ، حتى ولو لم يتعرضوا في النهاية لهجوم المحاصرين . ثم ما هي المدينة اليونانية التي لم تنقلب عليها الحرب في يوم من الايام يا ترى ؟ فقد اضطرت سبارطة نفسها ، التي طالما تباغت بانها تنقل الحرب الى البلدان الاجنبية وبان اسوارها الوحيدة هي صدور ابنائها ، ان ترضى صاغرة ، بعد هزيمة لوكرا ، بان يجتاح الطيبيون اريافها الخصبه حيث يحرق الصعاليك اراضي مواطنيها . ولذلك يمكن تلخيص مأساة اليونان الكبرى بانها لم تستطع ، بسبب الاعمال الحربية المستمرة ، تأمين الاستقرار الهانئ لفلاحها .

التجنيد : مبدأ رافق
كان فلاحو اليونان ، من جهة ثانية ، قوام بحارها ، اقلته في الجيوش البرية . فقد حافظ جيش المشاة ، كما سبق ورأينا ، على مكانته كملك المعارك التي احتلها في العهد القديم . وكان الهوبليت أبداً الجندي المثالي في هذا الجيش ، يجند ، بصورة خاصة ، من طبقة المالكين الصغار الذين يزاولون بانفسهم حراثة اراضيهم .

لا ريب في ان مبدأ الخدمة العسكرية للمواطن ولكل رجل يقيم في مسكن ، حتى الاجنبي ، كان مقراً ومعترفاً به في كل مكان . فكل رجل سليم البنية اذن قابل التجنيد . وكان من الممكن بالتالي ان تنظم جيوش اوفر عدداً وان تشمل التعبئة النبلاء انفسهم في حال فرضها على كافة الطبقات الاجتماعية . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث عملياً بسبب رسوخ التقاليد وعجز المدن في الموارد المالية .

استازمت الخدمة المجدية في فرق الهوبليت المشاة تربية عسكرية سابقة وخدمة حربية . وكانت هذه العدة ، بالاضافة الى ذلك ، من ثقل الوزن بحيث يصبح من المرغوب فيه ، لا بل من الضروري أحياناً ، ان يعاون الهوبليت خادم شخصي ، يغلب ان يكون عبداً ، في حمل اسلحته اثناء المسير وفي تحضير وجبات طعامه . وقد استازم كل ذلك حداً أدنى من أوقات الفراغ والبجوحة معتكنه من توفير بعض المال ومن تحمل بعض التضحيات المالية المباشرة وغير المباشرة . ولم تكن المدينة لتساعده في الظروف العادية ، عامدة ، بسبب فقرها ، الى رواسي المبدأ القديم الموروث عن الدولة الارستوقراطية الذي بوجِب على الحارب ، ثراء اسلحته وتحمل نفقات غذائه نفسها في أغلب الاحيان . وقد كان من الضروري انقضاء عسدة عشرات من السنين ، بعد الحرب الميدي الثانية ، حتى تقدم أثينا ، أكثر المدن ديموقراطية ، على اعطاء مثل لم يتبع غيرها إلا ببطء ، في التعويض جزئياً ، بما يتحمله جنودها من نفقات

وعما تحرمهم خدمتهم من ربح . ولكن دولة واحدة لم تفكر يوماً بالتعويض على الفتيان أثناء مرحلة تدريبهم المختصر على دورهم العسكري المقليل ولا بالمساهمة في شراء العبد الماعون ، حتى ولا في تأمين العدة للهوبليت ، إلا في حالات الخطر المدام التي تضطرها الى تعبئة اكبر عدد من المحاربين . وانما سبارطة وحدها حلت هذه المعضلة المالية حلاً غير مباشر بأن أمنت لمواطنيها امتلاك الاراضي وخدمة الصعاليك ، بفضل فتوحاتها واجهزة امنها .

يستنتج من ذلك ، ان الفقير مدعو لخدمة وطنه كجنداف في الاسطول البحري أو كجنددي في فرق المشاة الخفيفة مزود بعدة بدائية . فهو لا يملك المال اللازم للحصول ، لا على الرمح والسيف فحسب ، بل على الخوذة والدرع والترس والمسامي التي هي قوام عدة الهوبليت . وهكذا فإن طبقة صغار المالكين تمثل على العموم الطبقة الوسطى التي تقدم أوفر عدد من الجنود ، الى جانب المدن حيث يفضي النشاط الاقتصادي الى ايجاد طبقة من ذوي اليسار .

امام هذا الوضع ، لم ير فيه بعض المعاصرين ، ولا سيما الفنين منهم ، سوى الحسنات دون غيرها . ودرج التسليم بأن الفلاحين الناعمين بملكية بعض الاراضي يقدمون افضل الجنود . فمن الناحية الجسدية ، تحسن الحياة الريفية اجسامهم وتدريبهم على التعب والأسفار الطويلة والمشي المتقشف ، وتتمتع خفتهم بممارسة القنص . ومن الناحية المعنوية يشرك امتلاك الاراضي المصلحة الخاصة بالمصلحة العامة . فالذي لا يملك شيئاً يذود عنه لن يجارب بعنف من يخاطر ، ليس بشخصه وعائلته فحسب ، بل بالملكتك التي توفر له الحياة في الاستقلال الاقتصادي والتي يشده اليها العناء الذي يبذله في سبيلها يومياً . ومن شأن قانون الحرب واعرافها ، وهي أشد صعوبة على الريفيين منها على المدنيين ، ان تجعل الفلاح يعي بسرعة حقيقة ما يدور حوله الصراع . « تدفع الارض الفلاحين الى الذود عن بلادهم بقوة السلاح لان ثمار حقولها تحت رحمة الاقوى ... لنفترض ان الاعداء يغزون البلاد ولتقسم الفلاحين والصناعيين الى فئتين ولنسأل هذه الفئة وتلك على التوالي عن رأيها في الدفاع عن البلاد المنبسطة أو في التعلي عن الارياف والمحافظة على الاسوار . في هذه الحال ... لا شك في ان الفلاحين يقاترون للدفاع عن الارض ، وان الصناعيين يقررون العزوف عن الحرب والاستمرار في عطلة تعودوها في منأى عن المتاعب والمخاطر » .

من شأن هذه التأكيدات التي ينسبها كسينوفون الى سقراط ان تثير ابتسامة من يمين التفكير . كل حضارة مدنية لعاداتها وحالتها الاجتماعية وتقنياتها أو مفاهيمها العسكرية بمسال للجنددي لا تنرد في مقابلته بضده . فيقابل الجنددي بالفلاح ، والبربري بالمنحط ، والفارس بالمشاة السمجيين ، والابن الضال بأبي المائلة ، والاختصاصي في الآليات بالصناعي المتمرن . وهي أبدأ تجعل من هذه المقاتلة مبدأ تسمى وراء نقله الى الصعيد الادبي . فكسينوفون يقتصر على اعطاء شكل منطقي لما كان في ايامه واقعاً راهناً فقط : فلاحون من ذوي الاملاك الصغيرة يقدمون القسم الاكبر من الجيوش اليونانية التي كانت في غالبيتها نوعاً من « الميليشيا » المدنية . اما سبارطة فلا ينطبق

عليها هذا القول ، لان مواطنيها جنود مهنتهم الجندية من حيث انهم لا يحزثون الارض ولا يمارسون اية مهنة اخرى على كل حال . ولكن نسبتهم تتدنى رويداً رويداً حتى تصبح قلة نادرة في الجيوش التي يطلق عليها اسم « السبارطية » والتي هي في الواقع جيوش بلوبونيزية مشكلة من فرق المدن الحليفة او التابعة التي يغلب فيها العنصر الريفي . وهذا يعني انه لم يكن باستطاعة اية دولة يونانية ان تتعهد جيشاً كافياً من المتهنين . ولذلك فكل الدول مضطرة للجوء الى الطبقة الوسطى من مواطنيها ، أي الى فلاحها الاشداء القادرين على التسليح وتحمل مشاق الحملات العسكرية والمستعدين لبذل حياتهم ذوداً عن ممتلكاتهم ووطنهم على السواء .

غير ان هذه الطبقة ، والحالة هذه ، هي التي منيت بافدح الخسائر في الارواح ، لا بل ان تكرر التجنيد ، بفعل تكرر الحروب ، قد اعاق هؤلاء الفلاحين الصغار في استثمار اراضيهم ، لا سيما وانهم اعجز ماليّاً من ان يؤمنوا كفاف يومهم دون ان يجهدوا بقوة سوا سدهم وعرق جبينهم . فأفضت القومية التي لا تلين في المدن اليونانية ، هنا أيضاً ، الى خلخلة التوازن الاقتصادي والاجتماعي القصيم الذي كان مرتكزاً لحضارتها في ازهى عهودها .

هنالك سبب آخر ، ملازمة للذهنية اليونانية على ما يبدو ، حالت دون -
الثورات الدائمة
إثمار هذه الحضارة إثماراً كاملاً : تعدد الحروب الاهلية في المدن .

بيد ان الحرب الاهلية ، طيلة الشطر الاكبر من القرن الخامس ، لم تضم ولا تنسج الى ويلات الحرب مع الاجانب . فقد عرف العالم اليوناني بأسره حينذاك ، بعد ان حُزق شر تمزيق في داخل الكثير من مدنه ، هدوءاً نسبياً استمر نصف قرن تقريباً . فما هو تعليل هذه الاستراحة المحيرة في وقت توقف فيه النشاط الاستعماري وضؤل عدد المرتزقة الذين كانوا بمثابة دواء وقائي اثر الازمات الاجتماعية الخطيرة ؟ ليس تفسير ذلك ، في الحقيقة ، بالأمر اليسير . غير اننا نرجح ان الطبقات الاجتماعية الدنيا قد عرفت مصيراً اقل حقارة ، وذلك لاسباب وبوسائل نجهاها .

لكن هذه الاستراحة ، التي لا شك فيها ، تبقى قصيرة الامد ، اذ ان النزاعات الداخلية في المدن تعود الى الظهور قبيل الربع الاخير من القرن الخامس . ويقوم في الاساس من هذه العودة الصراع بين مذهبين سياسيين ، حكم الاقلية وحكم الشعب (اوليغارشية وديموقراطية) ، تمثلهما وترمز اليها وتساندهما المدينتان المتنافستان ، اثينا وسبارطة اللتان انتصبتا في سحر البلوبونيز الواحدة ضد الاخرى وارغمتا عملياً كافة المدن اليونانية على الانتصار لهذه او تلك منهما . ولكن النزاعات السياسية ، شأنها في القرون السالفة ، تعبر ، بتطورتها واستمرارها وشووها ، عن نزاعات اجتماعية أكثر عمقا . فانصار الاوليغارشية وانصار الديموقراطية انما هم ، اجمالاً ، الاغنياء والفقراء . ولاسباب غير واضحة ايضاً ، استصعب الفقراء حياتهم من جديد فحملوا بالبلبة والانقلابات .

بعد ان عاد الانشقاق الداخلي الى الظهور ، لم يعرف الى الهدوء سبيلاً ، لا بل انه ازداد مـ

الايام تأزماً وخطورة . فسيطرت الحرب في القرن الرابع سيطرة شبه دائمة ، لا على حدود المدن فحسب ، حيث لم تزل قائمة منذ زمن بعيد ، بل في داخل كل مدينة ايضاً . وقد حدث حينذاك ان المدينتين اللتين تلفتان الانظار ، أثينا وسبارطة ، قد عرفتا سلماً مدنياً غير كامل على كل حال . ومن حيث ان هذا السلم قد ادت اليه ظروف خاصة جداً ، يجب علينا ان نقرر نفسنا به . اما المقاومات حول المدن الاخرى فمن الوفرة بحيث تكفي للدلالة على وجود نزعة عامة على الاقل والاستعادة « مناخ » الامواء الشائرة فيها .

في الظروف العادية ، تعتمد الاحزاب المتخاصمة - التي قد تتقاتل احياناً - الى فرض الابعاد . ويرافق الابعاد الطوعي والقسري حجز ممتلكات المغلوبين وتوزيعها على المنتصرين او بيعها لمصلحة الخزانة العامة . ولكن عضد الاجنبي ، اذا لم يكن من عضد غيره ، لا بد ان يتيح للحزب المغلوب ، في يوم من الايام ، ان يستعيد السلطة . وعندما يتسم الحظ ، يعرض المبعدون عما خسروه بممتلكات خصومهم ويحاولون استعادة املاكهم ايضاً . وليست هذه الاستعادة بالأمر العسير للأملاك التي انتقلت الى أيدي الأعداء أو تلك التي لم تبعها الدولة . ولكنها ، تصبح من المعسوبة بمكان للأملاك التي بيعت أو رهنّت أو انتقلت الى شخص ثالث مهراً أو هبة بموجب وصية . ولذلك ، فإن كل ثورة سياسية تستتبع سلسلة لا حدة لها من الدعاوى والمنازعات . واذا لم تتوفر الاموال للتعويض عن الاضرار الحاصلة ، يغدو الوضع مستغلقاً لا سبيل الى الخروج منه سوى القوة . واذا ما استخدمت القوة ، تدمر الحرب الاهلية الى ما لا نهاية لها بصورة شبه حتمية .

هدد الحزاب اذن الأملاك الموروثة عن الوالدين حتى تلك التي لا شأن لها . وأفضت تقلبات ونتائج الحرب الاهلية الموضعية الى ارتفاع عدد البائسين المبعدين عن دولتهم أو العاجزين عن أن يجدوا فيه أودهم وأردع عائلاتهم . فاضموا الى عداد من أفقرتهم غزوات الجيوش الأجنبية ومن تنتهي بهم طبيعة ارض اليونان القاسية الى العوز والفاقة اذا لم يتمدد النسل بحكمة . فانتشر الفقر باستمرار ، وقد زاد انتشاره ، وهو معاول وعلة معا ، في خطورة عمليات المعضلة الاجتماعية التي تضاعف حدتها تنافس الاحزاب . وبانتظار معجزة أو ثورة تنشلان المعوزين من هذه الضائقة ، لا يبقى امام سوادهم الأعظم غير مورد المخاطرة بحياتهم تأميناً لضرورياتها .

وهكذا يطل مرة ثانية الارتزاق الذي ما كانت اليونان لتعرفه عملياً ، وعلى نطاق واسع ، منذ اوائل القرن السادس . وتبرز احداثه ابان حرب البابونيز ؛ ففي الأساطيل خصوصاً ، أتاحت له الامدادات الفارسية ، في السنوات الاخيرة من هذه الحرب ، اتساعاً كبيراً ، اذ ان اولئك الجذافين الذين تجعلهم زيادة أجر هزيلة ينتقلون من المراكب الاثينية الى المراكب اللاكيدونية ليسوا في الحقيقة سوى طغماء المرتزقة . أما في ما يتعلق بالجيوش البرية فمعاوماتنا

القليلة لا تسمح لنا بإبداء رأي صريح . غير ان نهاية الحرب تليها ، بعد فترة قصيرة ، الحملة التي تقود « العشرة آلاف » الى بلاد بابل اولاً ثم الى شواطئ البحر الأسود والتي يسرد وقائعها كتاب كسينوفون المعروف بـ « أناباسيس » . نعمنا من ريب ان هؤلاء العشرة الاف ليسوا جنوداً مواطنين قدماء فقدوا مذاق الحياة المنتظمة . فسلك بينهم من رواد المغامرات الذين تركتهم نهاية الاعمال الحربية دون عمل ؟

ثم يتسع الارتزاق بعد ذلك باستمرار بحيث يتوجب علينا ، تعليلاً لانتشاره المدهش ، ان نفكر بالمصادر العديدة التي استطاع القزود بالرجال منها . لا شك في ان الابعاد السياسي مصدر هام من هذه المصادر . غير ان المبعدين ليسوا جميعهم بصالحين للمهنة العسكرية التي تعرض بعض الصفات الجسدية . كان الاسكندر بين السنين ٣٣٤ و ٣٣٨ قد جند تحت امرته قرابة ١٥٠٠٠ مرتزق ، وأقام منهم ٢٥٠٠٠ في المدن الحديثة التي أسسها . وشهد عدم غيرهم في امكنة اخرى ايضاً ، في صقليا وفي ايطاليا الجنوبية مثلاً . ولكن هذا « البزل » من مجموع المنفيين لم يندرج ٢٠٠٠٠ مبعدين الاجتماع في أولمبيا في صيف السنة ٣٣٤ حين شاع الحدس بان أحد موفدي الاسكندر سينذيع فيها امراً صادراً عن الملك وموجماً ل« لاذقة المدن » بفتح ابوابها للمبعدين . فيتضح من ذلك ان هنالك واقعاً اجتماعياً ذا أهمية كبيرة ، هو إحدى آفات اليونان طيلة القرن الرابع .

أضف الى ذلك ان وجود المرتزقة الكثيرين المستعدين للدخول في خدمة من يدفع اجراً اعلى او من تسمح لهم شهرته ان ينتظروا منه السخاء والانتظام المارن والنصر والفخمة ، لم يمتنع اعراف سياسية فظة وعن وضع اجتماعي غير مستقر فحسب ، بل انشأه أسهم في تعميق الحرب ايضاً ، لأن الحرب أصبحت ممكنة بالمال اذا لم يتوفر لها الرجال ، وفي جعلها اكثر تدميراً وتخريباً لأن المرتزقة لا يميلون ، من طبعهم ، الى مراعاة جانب المدنيين غير المجهدين معها كانت جلسيتهم .

يتضح من ذلك ان اليونان قد غذت في أحشائها أحقاداً دائمة الهياج . فافست المنافسة ، التي ألتها الشاعر القسديم هيزيود بشخص « ايريس » ، الى البغضاء التي أفست بدورها الى التقتيل والتدمير . أجل ، قد تكون الروح اليونانية مدينة لها بقسط من وثبتها المتأججة . ولكن الاغريق قد حرموا ، بسببها ، حسنات السلم والطمأنينة والاستقرار .

بيد انهم ، على الرغم من ذلك ، قد انتقوا بمحضارتهم ، خلال القرنين الخامس والرابع ، الى طور النضج . فلم تعقها هذه الظروف المعاكسة ، في ارتفاعها ، بقدر مما عجبت قهرها ، بجرمانها من الاستقرار .

الفصل الثاني

المثل الأعلى والوقائع السياسية

لن نغالي قطع في الكلام عن أهمية الـ « بولس *Polis* » ، أي المدينة ، لأنها في الأساس من هذه الحضارة ، لا تكون إطارها فحسب ، بل تعطى ميزاتها الرئيسية أيضاً . فالحضارة اليونانية الكلاسيكية ، بجوهرها ، حضارة البولس ، وقد نضبت نسخها حين عجزت المدينة عن التغلب على الصعوبات السياسية الداخلية والخارجية التي واجهتها وعن ارضاء نزعات مواطنيها .

١ - سيادة المدينة

المدينة هي بالضرورة دولة محصورة الرقعة . ولا أهمية لهذه الرقعة في تحديدها .
فهي ، في جوهرها ، المواطنون ، الشعب ، الـ « ديموس » . ولم تأت الكتابات
الرسمية في يوم من الأيام على ذكر « أثينا » أو « لاكيديمون » أو « الجمهورية الأثينية »
أو « الجمهورية اللاكيديمونية » ، بل اقتضرت ابدأ على « الأثينيين » أو « اللاكيديمونيين » ، « مدينة
الأثينيين » أو « شعب الأثينيين » ، « مدينة اللاكيديمونيين » أو « شعب اللاكيديمونيين » .
فالمفهوم اليوناني ، إذن ، إنما يفرض على وحدة المواطنين حدوداً ضيقة بعض الضيق . فعدد
المواطنين المثالي ، في نظر فلاسفة القرن الرابع هو عشرة آلاف كحد أعلى (حتم أن أفلاطون
قد حددته بـ ٥٠٤٠) ، وهم قد أخذوا على أثينا ، مسارعة أو مداورة ، أنها قد جمعت أكثر
من هذا العدد . فقد كتب أرسطو : « لا نستطيع تكوين مدينة من عشرة رجال ، كما أن
عشرة آلاف لا يكونون مدينة أيضاً » . وجلي أن السبب الوحيد لهذا التحديد هو السماح لكل
مواطن بأن يعرف شخصياً كل مواطن سواه ، لا في شكله الخارجي فحسب ، بل في أخلاقه
أيضاً ، وفي طريقة وأساليب حياته ، وفي ارتباطاته العائلية ، وفي نشاطه اليومي تقريباً .

لوحدة المواطنين هذه مركز هو المدينة التي هي قلب الـ « بولس » . وفي حالة الخطر ، تؤمن
أسوارها دفاعاً تؤلف اللغة (اكروروبولس) مرتكزه الأخير . هنا تجري الاتصالات على

انواعها ، السياسية والاقتصادية والفكرية . وهذا تقيم سلطات الحياة الجماعية . وهنا تقوم السوق التجارية والمدارس والمنتديات الرياضية والمسارح والمعابد الرئيسية .

ولا غنى عن هذه المدينة من الناحية النظرية ، مع ان وجودها لا يتوفر لبعض الشعوب اليونانية . ففي بعض المناطق الجبلية والنائية من اليونان الوسطى والغربية يعيش الرجال مشتمين في مساكن منعزلة او في قرى صغيرة ، وليس لهم سوى معابد ريفية يجتمعون حولها في ظروف الاعياد التي هي أسواق دورية في الوقت نفسه . ولذلك فانهم يعتبرون متأخرين ، ولا تجنسي عليهم بهذا الاعتبار . فلن يتوصل بعضهم ، قبل او اخر العهد الكلاسيكي ، الى لعب دور سياسي او عسكري ، عاجزين ، على كل حال ، عن ترك اي اثر اقتصادي او ادبي حينذاك .

بيد ان هذه المجموعة السكنية ، حتى في المدن المتطورة ، ليست في الظروف العادية مكان اقامة كافة المواطنين ، باستثناء بعض الحالات التي تبررها حاجة للوقوف في وجه ثورة ممكنة يقوم بها السكان المخضعون ، كما حدث في سبارطة مثلاً او في بعض مدن المستعمرات اليونانية . فان نسبة كبيرة من المواطنين تبقى موزعة على الاراضي المجاورة . ولكن المهم من الناحية الحقوقية ان المدينة تعامل بالمساواة المواطنين الذين يقطنون المدينة واولئك الذين يقطنون الاراضي المجاورة . فهي لا تكتفي بأن تترك للقرى الصغيرة امر ادارة شؤونها استقلالياً ولا تتدخل فيها إلا في الحالات الخطيرة وتكلفها رعاية العبادات المحلية إلا اذا بلغت من الاشعاع ما يؤهلها للارتفاع الى مرتبة العبادات الرسمية ، بل انها تعطي سكان الارياض ، مع مراعاة النسبة العددية ، حق الاشتراك بحكومة المدينة كلها بالتساوي مع المدنيين ، وحقوقاً مدنية وسياسية لا تختلف بشيء عن حقوق هؤلاء . أجل قد تبرز عملياً بعض الفوارق التي تضر بسكان الارياض يجب ردها الى تشتتهم وبعدهم عن المركز المشترك . ولكن هذه الفوارق أعجز من ان تؤثر بشيء على المساواة النظرية .

للمدينة ، من حيث مفهومها ، السيادة المطلقة كدولة .

سيادة المدينة الخارجية

لا تعترف ، خارجاً عنها ، بأي مبدأ اعلى يُعَدُّ من مندوحتها . فهي تقرر ، لا بل تعلن ببعض التيم ، انها يونانية . غير ان انكسارها الى مجموعة عنصرية اكثر منها اتساعاً لا يفرض عليها سوى واجبات أدبية تنكاد تفقد فعاليتها حين تتعرض مصالحها للخطر . وليس سوى العبادات اليونانية الجامعة القليلة العدد ، كمعابد اولمبيا ودلفي في الدرجة الأولى ، ما توصل الى فرض احترام بعض الانظمة . ولكن نفوذ هذه الانظمة لم يتمتع دائماً بقوة رادعة كافية ، فقد أدت بعض الحوادث الخطيرة الى نزاعات مسلحة لم يستطع القانون الديني قط الحؤول دونها او منعها .

ان لفشل دلفي ، في هذا الصدد ، لمغزى كبيراً . كانت اولمبيا مرتبطة بمدينة بلوبونيزية صغيرة هي « ايليس » التي فرض عليها ضعفها موقفاً حكيماً . اما المعبد الدلفي فقد قامت على

ادارته جمعية شعوب « مجاورة » او مجلس اتحادي . نعم كانت هنالك مجالس اتحادية اخرى في العالم اليوناني . ولكن مجلس دلفي لم يكن أشهرها فحسب ، بل اوسعها حظوة بسبب شهرة هتافات الغيب الصادرة عن عرافتها ، واوسعها نفوذاً بفضل القوة العسكرية التي يتمتع بها هذا المجلس مبدئياً . وكانت اليمين التي يقسمها اعضاء المجلس ، وفاقاً لصيغة قديمة ، توجب عليهم ان يدافعوا كلهم وبكل قواهم عن مصالح الإله ، وتحظر « تدمير أية مدينة اتحادية وقطع المياه الجارية في أيام الحرب وایام السلم على السواء » ، وتواجه امكانية شن الحرب الجماعية على كل من يخالف هذه الاوامر . وكان مجرد اجتماع مندوبي الشعوب الاتحادية ، مرتين في السنة ، مدعاة لمفاوضات حول المصالح المشتركة . وكان من شأن هذا التصميم الایجازي ، لو اكمل ، ان يفضي الى نتائج بعيدة الأثر : ومن الجائز ان نفكر هنا بتلطيف قانون الحرب وبتحكيم أعلى يتولاها جهاز اتحادي وحتى بتوحيد تدريجي . ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق . فقد نشبت أربع « حروب مقدسة » ، واحدة منها في القرن الخامس واثنان في القرن الرابع ، لم تختلف قط عن الحروب الاخرى ، إذ ان الحجة الدينية المتدرع بها لم تخف ، كل مرة ، حقيقة تصادم المصالح السياسية . فدمرت مدن اتحادية وقطعت المياه عن المدن المحاصرة ، دون ان يعترض على ذلك معترض . اما المجلس الاتحادي نفسه فلم يوسع تنظيمه توسيعاً كافياً ولم يكتف قط وفاقاً للواقع السياسي في العالم اليوناني . ولم يكن في الواقع سوى أداة طيعة في ايدي السلطة النافذة في اليونان الوسطى أولاً ، والتتساليين *Thessaliens* قبل الحروب الميدية ، وسبارطة وطيبة بعد ذلك ، والملك المقدوني اخيراً . وهكذا فان الامكانات التي قد تكونت في دلفي قد أجهضت إما اجهاض .

من حيث ان المدينة خلية صغيرة شريعته الانانية ومثلها الاعلى الاستقلال التام ، فانها لم ترتبط الا بتمهيدات دولية تراها متوافقة ومصالحتها ، ما لم تضطرها قوة قاهرة الى تعهدات اخرى . وعندما ترى ان مصالحها قد تبدلت ، لا تحترم اي ميثاق مهما كانت نصوصه قطعية ومهما كانت الايمان التي رافقته مغلفة . ولم تختلف معاهدة الصلح ، زمناً طويلاً ، عن هدنة قصيرة الأمد . ففي السنة ٤٤٦ ؛ مثلاً ، عقدت أثينا وسبارطة الصلح لمدة ثلاثين سنة ، وفي السنة ٤٢١ لمدة خمسين سنة ، ولكن ذلك لم يمنعها من استئناف الاعمال الحربية منذ السنة ٤٣١ والسنة ٤١٣ . وفي القرن الرابع ، تمدد فترة السلم المتفق عليها وتبرز لأول مرة الصيغة « دائماً » المنقولة عن معاهدات التحالف والمعدة لأن تصبح دارجة الاستعمال ؛ ولكن لم ينخدع احد بهذه التمهيدات السريعة الزوال . فهي انما كانت احدى المعطيات البدائية للدبلوماسية اليونانية ، بل النتيجة الحتمية لمفهوم الـ « بولس » نفسه .

بيد ان بعض المدن كانت اعضاء في اتحادات اقليمية لها صفة الدولة ، لا صفة الحلف فقط ، بفضل أجهزتها السياسية الدائمة . لنهمل الدول البدائية حينذاك التي تجمع شعوباً كالقوسيديين

والإيتوليين الذين لم يكن لـ « بولس » عندهم حيوية أو وجود أيضاً . ولكن الدولة البيوسية ، التي لعبت ذلك الدور الكبير في القرن الرابع ، اختلفت في الحقيقة اختلافاً كبيراً عن هؤلاء . فقد تكونت من مدن لا تقتصر على ولاية جماعية للمصالح الدبلوماسية أو العسكرية المشتركة . وكان للندن البيوسية مؤسسات متشابهة ، ومنحت كل منها بعض الحقوق لمواطني المدن الأخرى . فحققت إذن فيما بينها وحدة يحوز لنا الاعتقاد بأنها ، لو قُض لها نمو طبيعي ، لانتهدت إلى الانصهار : فالمنطق يقضي بشد الروابط العضوية ، والانتقال على التوالي من الجبهة الدفاعية المشتركة إلى التحالف ومن التحالف إلى الدولة الاتحادية ومن الدولة الاتحادية ، بالتدرج ، إلى الدولة الواحدة . ولكننا نعلم علم اليقين أن حالة على هذا الوضوح وهذه المؤاتة لم تبرز في غير مكان . ففي الأطوار الجغرافية الكبيرة الأخرى ، أي سهل تساليا الواسع ، لم تظهر دلائل تطور ممكن نحو الوحدة ، قبل خضوع البلاد لفيلبوس المقدوني ، إلا بسرعة البرق الخاطف . ولكن انفراد مثل الدولة البيوسية واقع لا يرقى إليه الشك .

ليس في الحقيقة ، في هذا المثل ، ما يحمل على البحث عن الفوارق ، لا بل أنه يؤيد ما يرى في غير مكان . وما لا شك فيه أن الاختبار البيوسي هذا قد اعترضته القوة الأجنبية فأوقفته : فإذا لم يؤد الانتصار المقدوني إلى زوال الدولة البيوسية زوالاً قانونياً ، فإنه قد أقضى ، على الأقل ، إلى ارتقاء روابطها الداخلية وإضعاف بل تدمير طيبة ، مدينتها الرئيسية ، التي كانت قد نظمت هذه الدولة وأشرفت عملياً على إدارتها : ولكن مجرد نجاح اقتصاص فيلبوس والاسكندر من طيبة في إيقاف تطور انطلق انطلاقاً مشجعةً للدليل واضح على أن هذا التطور كان مصطنعاً . ويبدو أن المدن البيوسية الأخرى لم تسر سيرة مع التيار الذي أوجدته طيبة . فلو اتبع للدولة البيوسية أن تعيش ، لغدت الدولة الطيبية فحسب .

يجب في الواقع انتظار العهد التالي حتى ترضى بعض المدن ، عن طريق القسر ، بالتضحية بشيء من سيادتها النظرية ، التي دافعت عنها دفاعاً حريصاً حذراً حتى ذلك التاريخ ، بغية إيجاد دول اتحادية حقيقية . ولكن هذا المثال الأعلى ، الذي لن تسمح له القوة الرومانية بالتحيز طويلاً ، غريب عن اليونان الكلاسيكية . فهو إنما أوجده اخفاق « البولس » وأملته الضرورة ، لأنه يحاول بشق طرق المحاولة تحقيق توازن الممالك الهلينية الكبرى بوضع حد نهائي للتفتت الإقليمي الخاص .

المدينة سيّدة أيضاً ، داخل أراضيها ، على الأشياء والكائنات على السواء ، المدينة والفرد وقد تمتعت بهذه السيادة ، نظرياً ، منذ البداية وفي كل مكان . وقد استمرت في الواقع ، بفضل تقدم الديمقراطية ، في توسيع النطاق العملي لسيادتها . فالديموقراطية لا تعني قط تراخي سلطة الدولة . ومن خطئ الرأي القول بغير ذلك ، انطلاقاً من مثل سبارطة . فحلفاء سبارطة ، في القرنين الخامس والرابع ، المدن (الأوليغارشية) التي تحكمها الأقليات ،

والاوليغارشيون ، في كل مكان ، يستهويهم ، على الاقل ، الاعجاب بمؤسساتها . ولكن ذلك ليس سوى انتهازية ، او بالحري اختيار اهون الشرور . فإذا ما نظرنا الى مبادئ تنظيم سبارطة ، بدت لنا هذه المدينة ، في النطاق الاجتماعي خصوصاً ، ومن بعض النواحي السياسية ايضاً ، كما كمل الديمقراطية اليونانية . وفي الصفة « متساوون » التي تنعت بها مواطنيها برهان قاطع على ذلك . فالاوليغارشية الحقيقية تقوم على اساس اخرى . وهي لا تربط المواطن بالدولة مباشرة ، بل تضع بينها هيئات وسيطة او اطرار اجتماعية منظمة ، ليس الفرد فيها سوى عنصر من عناصر الجماعات المشكّلة وفاقاً للنسب ، والمصونة بفضل المحافظة على عادات البنوة الحقيقية او الاسطورية ، وهذه العبادات أفضل ما يصون تقاليد الجود . بهذه الهيئات الوسيطة تصطدم الدولة عندما تقرر العمل ، وعندها من القوة ما يجعلها غالباً تسيطر على الدولة نفسها . لذلك يجب ان يتم التطور الديمقراطي على حسابها . اجل ان هذا التطور يحرر المواطن من الروابط التي تقيده . ولكن المدينة ايضاً تقيده منه لأنها تصبح أمتع قوة وظيفية في ممارسة سيادتها المباشرة الفورية على الافراد المنزليين . حينذاك ، وحينذاك فقط ، يقوى عند الاوليغارشين ميل نحو سبارطة سبق . ونما عندهم بفضل عداوتها للاستبداد ، فيحولون انظارهم اليها ، لا سيما وانها لم تعرف قط هذه الهيئات الوسيطة ، وان الدولة فيها تضع كل طاقتها بالتالي في خدمة المحافظة على التقاليد الادبية التي فتحت فيها السلم في غير مكان ؛ ولكن مساندة سبارطة قد اظهرت في النهاية انها عاجزة عن ايقاف التطور العام .

تفرض المدينة ، باسم « نواميس » ، « شرائع » و « عادات » ، كتابية او شفوية ، تسمو على الارادات الفردية او الحالات النوعية . أما القرارات التي تعود الى هذه المبادئ فلا يجوز ان تدعى إلا « مراسيم » ، وتؤخذ كافة الاحتياطات كي لا تتعارض والشرائع . فقد جاء في الكتابة المحفورة في الترموبيل على نصب ليونيداس ورفاقه : « أيها المار ، اذهب وقل لسبارطة اننا متنا اطاعة منا « لنواميسها » . ويضع أفلاطون ، على فم سقراط المحكوم بالموت ظاهراً وعدواناً منلجاة « النواميس » القمينة بتذكيره ، اذا ما حاول الهرب ، بواجبه في الخضوع خضوعاً أعمى حتى الى اخطائها ، تحاشياً لاحدارها ، شأنه في تحاشي احدار ابيه وامه . وتقوم سيادة « البولس » الداخلية على نفوذ « النواميس » والاحترام الذي توحيه والذي لا حياة جماعية ممكنة بدونه .

لا شك من جهة ثانية في ان « الشرائع » ، التي تسمح بموجبات المدينة ، تحددها بالفعل نفسه ، لانها تفرض على المدينة العمل ببعض القواعد او بعض الطرائق على الاقل . فعقوبة الابعاد مثلاً التي توجد ، بأسماء اخرى وبكيفية مختلفة ، في مدن غير أثينا ، تجيز ان يفرض على المواطن نفي لمدة عشر سنوات دون تقديم أي مبرر ، ودون دعوى او مناقشة ، ودون اتهام أو دفاع . وقليلة في الواقع هي المؤسسات التي تبرز بهذا الوضوح سلطة المدينة البالغة على مواطنيها لانها

بذلك اعطت لنفسها وسيلة ، يحدث ان تلجأ اليها عملياً ، لتتال ، بمجرد هواها او تخوفها ، من رجل لا تهتم حتى لاعلان ذنبه . ولكن الابعاد لا يجوز تقريره الا بعد اجراءات خاصة ، يوفر القيام بها ، للضحايا الممكنة ، حداً أدنى من الضمانات . وفي بعض النواحي ، كذلك ، قد تتعدى مفاهيمنا العصرية للدولة المفاهيم اليونانية . فالمدينة التي غالباً ما تقرر حجز ممتلكات محكوم ما تجهل الاستملاك لاعتبارات تقتضيها المنفعة العامة . فـ « النواميس » ايضاً اذن قد لا تماشي « البولس » احياناً .

ولكن لا شيء ، نظرياً ، يحظر التحوير ، والتوسع في الشرائع . وفي سبيل . اعطاء المزيد من النفوذ ، تطبع بطابع ديني او اكرامي على الاقل . ولكن الجميع يعرفون انها في الواقع عمل بشري لأنهم يذكرون واضعها المعتبرين اشخاصاً حقيقيين حتى ولو تسربت الاساطير الى تاريخ حياتهم ولأن إعادة النظر فيها امر ممكن شريطة العمل ماجراءات محددة . فليس اذن ، من حيث المبدأ ، اي حد لنفوذ الشرائع الذي قد يتناول جميع مظاهر الحياة البشرية وجميع مراحلها واعمالها ، كما حدث في سبارطة حيث اخضع المواطن للدولة منذ السنة السابعة حتى السنة الستين . اما في غير مكان فيسنى هذا النفوذ اكثر استتاراً ، ويطيّب للاثنيين ان يتباهوا به . ولكن شرائع أثينا نفسها - وقد عدلها كليسنين للمرة الاخيرة في اواخر القرن السادس ، ثم اعيد النظر فيها واضيفت بعض الشرائع الجديدة اليها - تتناول ألف ناحية من نواحي الحياة الخاصة والحياة الجماعية على السواء . فهي تحدد الواجبات الدينية والمالية والعسكرية حيال المجموع كما تحدد شروط الزواج الشرعي والعقود التجارية وتربية الاولاد . واذا لم تواجه استملاك الممتلكات العقارية ، فمحافظة على الاستقرار الاجتماعي وتفادياً لاستغلاله استغلالاً ثورياً ممكناً . وكان باستطاعتها التدخل في كل الحقول التي اهملها دونما تعرض لاي مبدأ اساسي .

فلماذا لم تفعل يا ترى ؟ هل ان الضرورة لم تقتض بذلك ام ان مرد ذلك الى قوة التقليد ، او التحفظ النطقي ، او الاشتمزاز بتأثير المثالية ؟ قليل من كل ذلك في آن واحد . اجل لقد شدد العقائديون القدامى على الفكرة التي لاقت ارفع اصداؤها واجملها في النائبين الذي ينسبها توسيديد الى بريكليس في السنة ٤٣١ : ليس لسلطات المدينة من مبرر سوى حماية المواطن من الضغط الداخلي والضغط الخارجي ؛ تحاول المدينة ، مقابل ذلك ، ااحاة الفرص لتفتح شخصيته الفردية تفتحاً كاملاً ؛ تستهدف المدينة تأمين الحرية والعدالة للمواطن . وهذا لعمرى هو المثل الاعلى للحضارة اليونانية الكلاسيكية . ولكن كم من الناس رأوه ولو رؤية غامضة ؟ وكم منهم كانوا مستعدين لتكليف اعمالهم عليه .

من حسن الطالع ان الظروف اتاحت ، خلال وقت قصير وفي بعض المدن المحظية ، ترائي ذلك التعاون العجيب بين المجموع والفرد ، النافع لهذا وذاك ، ومباشرة تحقيقه وتحيزه . . .

وعلى الرغم من بقائه نظرياً في غالب الاحيان أو من صيرورته نظرياً بسرعة ، فان هذا المثل الاعلى يمثل واحدة من أثنى معطيات الحضارة اليونانية الكلاسيكية التي عرفت ، خلال القرون ، حيوية ناشطة مستمرة .

٢ - خطوط التنظيم السياسي العامة

المدينة والسلطة الشخصية
بديهي ان تنظيم المدن متنوع جداً . فسيادة المدن ، بالإضافة الى مرونة الفكر اليوناني واختلاف الحالات التاريخية تستلزم هذه النتيجة . ولكن هنالك بعض المبادئ العامة المشتركة أملاها الاختبار او تولدت من تقاليد العهد القديم .

المدينة اليونانية جمهورية أولاً . أجل ، لقد قامت الملكية في كل مكان في البداية . واذا لم تزل قائمة في اليونان الحقيقية ، فان وجودها إسمي فحسب ، وهي اقرب الى ولاية محدودة الصلاحيات والمدة ينتخب من تسند اليه دونما اعتبار الى منشأه العائلي . وتقدم لنا أثينا أجلى مثال على ذلك : فالملك (الفاسيلئس) فيها واحد من مجلس الأراكنة العشرة الذين يجري انتخابهم كل سنة ، ولا يلعب سوى دور ديني وقضائي غير ذي اثر في الواقع ، ويجري تعيينه بالقرعة كباقي الأراكنة وفقاً لطريقة أدخلت عليها تحويرات شتى في القرن الخامس بغية الحد بصورة نافذة من امكانات المخاتلة والضغط . لكن سبارطة هنا ايضاً تشذ عن القاعدة . وليس من أقل مميزات ان تحتفظ بملكين مدى الحياة ينتسبان وراثياً الى أسرتي « الآجياس » و « الايريوننتس » ، ويتولى أحدهما بالضرورة قيادة الجيش . ولكن الملكية قد ضعفت في سبارطة نفسها . وانظمة الخلافة الوراثية من التعقيد بحيث يتوجب احياناً على المدينة الاختيار بين طلاب هذا المنصب الكثيرين . وقد أعيد النظر بنوع خاص في مبدأ مسؤولية الملوك حتى كقواد جيوش . ونظمت رقابة على أعمالهم خلال الحملة العسكرية ، فدفعتهم بعض السوابق الرهيبة الى الامتنال بحكمة لتعليمات السلطات الادارية . فشتان ، في سبارطة نفسها بين ، ملكية اليوم وملكية الازمنة الغابرة .

لم يكتب البقاء للملكيات الأزمنة الغابرة سوى في المناطق البعيدة عن اليونان الأم ، بفعل اتصالها بالشرق الملكي ، كما في قبرص ، ولا سيما في الشمال من شبه الجزيرة اليونانية ، بفعل اتصالها بالقبائل البلقانية البربرية ، كما في الأبير ومقدونيا وتراقيا . فهناك تلعب التأثيرات الشرقية دورها ، ولا سيما الحاجة الى الوقوف في وجه منافسة الفينيقيين الساميين القوية ، المقيمين هم ايضاً ، في الجزيرة . وهنا ، بالإضافة الى البعد عن التيار العام للتطور اليوناني ، حافز الرغبة في الوقوف في وجه غزوات الجيران الشغبين . فالملكية في العالم اليوناني ، خلال القرن الخامس والنصف الاول من القرن الرابع انما هي نظام مناطق الحدود . وما يلفت الانظار ان هؤلاء الملوك ، في شمالي شبه الجزيرة على الأقل ، لا يطلقون على أنفسهم ولا يلقبون ، في علاقتهم

بالاغريق ، بلقب « الفاسيلفس » الذي هو من خاصياتهم والذي أحيط بهالة من الإجلال في الملحم الهوميروسية . ولن يعم استعماله من جديد إلا بعد الاسكندر . فكان مفهوم الملكية حينذاك اعتبر ، بالاجماع ، مفهوماً غريباً عن الحضارة اليونانية وميزة من ميزات البربرية .

ولم يقف جهل المدينة اليونانية عند الملكية فحسب ، بل تعداها الى الحكم الفردي بوجه عام . أجل انها عرفت الاستبداد احياناً في العهد السابق بشمول كافٍ لأن نرى ، في نظام الحكم هذا ، مرحلة شبه طبيعية من مراحل التطور السياسي . ولكن هذه المرحلة قد دخلت في التاريخ . فالاستبداد ، حينما قام بفعل ظروف الوضع الداخلي ، قد زال منذ أواخر القرن السادس . اما في غير مكان ، كصقليا وايطاليا الجنوبية مثلاً ، فقد استمر هذا الاستبداد بضع عشرات من السنين بفضل الاسباب نفسها التي أتاحته له تسلم الحكم ، اي الخطر الخارجي . ولكن زوال هذا الاخير يسبب زواله ايضاً . فبعد ان كسر القرطاجيون في هيميرا (٤٨٠) والاتوريون في كومس (٤٧٤) ، حكم على عهد سلالة الدينيومينيس بالزوال في سيراكوزا . وقد انهار بالفعل في السنة ٤٦٦ ، فعرفت المدينة الصقلية الكبرى سيادة « النواميس » مرة اخرى ، بعد فترة من البلبلة والتشويش . فبدأ الاستبداد حينذاك ، وحتى السنوات الاخيرة من القرن الخامس ، وكأنه مرحلة سحيقة من تاريخ العالم اليوناني القديم . ولكنه لن يلبث ان يعود الى الظهور ، في سيراكوزا اولاً ، مع دونيس الاول الذي تسلم السلطة في السنة ٤٠٥ مستشراً خطورة التهديد القرطاجي الذي لاح في الأفق مرة ثانية ايضاً . ويتوسع الاستبداد في القرن الرابع رويداً رويداً بفضل الخطر العسكري اولاً والمتاعب الداخلية ثانياً . ولكن عودته الى الظهور وتوسعه انما هما من ذبول الأزمة التي تمر بها المدينة ، إذ ان المفهوم الكلاسيكي للمدينة يتعارض والاستبداد تعارضاً كلياً .

فـ « البولس » الكلاسيكية تحشى الفرد المتفوق الذي قد تكلفها خدماته ، اذا كان له من خدمات ، ثمناً غالياً جداً في النهاية . ويقلقها كل نفوذ فردي ، لانها لا ترى كيف يمكنها ان تضع له حدوداً لا يتخطاها . لذلك فليس من احتياط لا ترى حاجة اليه ، وليس من ظنّة مهينة في نظرها . فلا يدون اسم القائد في النذور والانصاب التذكارية الاخرى للانتصارات ، بل اسم المدينة دون غيرها . وسيرد على لسان ديموستينس ما يلي : « ما كان ليخطر على بال احد ان يدعو انتصار سلامين باسم تيمستوكلس لأنه عرف بانتصار الاثينيين ، ولا ان يدعو انتصار ماراثون باسم ميلتياداس لانه عرف بانتصار المدينة . ولا يمكن لأي رجل في وظيفة عامة ان يطمئن لعدو او ان ينجو من المراقبة الدقيقة في نطاق عمله . فهم كان من احترام بريكليس لسيادة الشعب ومن مراعاته لها بكل خلوص نية في تعامله مع المجلس ، فلم يتردد خصومه في ان يصموه بالاستبداد ، وقد جاء اخيراً يوم قلبه الشعب فيه وحكم عليه . وقد قوى التطور اللاحق هذه النزعة . اجل ان تقدم التقنية العسكرية وتكاثر الحروب وتزايد صعوباتها قد

أُتاحت للقواد المنتصرين مزيداً من الشعبية . فإن حرب البلوونيز التي انتهت بانتصار أحاط ليسندروس بشهرة ونفوذ لا مثيل لها ترسم بهذا الصدد عطفة حاسمة في تاريخ العادات والاخلاق . وهكذا غدا القواد منذ ذاك الحين موضوع اكرام فردي لم يكن ليخطر على بال . ولكن هذا الحماس الشعبي الهائج يقابله في حالة الهزيمة ، أو خيبة الامل فقط ، انهيار ضم الأوس مع ما يرافق هذا الانهيار من حيا غضبة وهيجان . وقد نال بطلا عظيمة طيبة ايبامينونداس وبيلوبيداس ما نال غيرهما من ذلك . وليست حياة كل من يتعاطى السياسة في أثينا سوى سلسلة طويلة من الدعاوى يكون فيها اما مدعياً واما مدعى عليه . ونادرون جداً هم رجال الدولة العظام الذين لم يتعرضوا للغرامة أو النفي أو حتى لعقوبة الاعدام احياناً .

لقد قيل عن هذه الظنّة انها من قبيل الحسد الذي يتآكل النخبة . وفي هذا القول بعض الحقيقة لأن الجماهير في كل زمان ومكان متقلبة متلونة متحفزة لإسقاط أولئك الذين تبدو وكأنها لم تضعهم داخل الهيكل إلا لتجعل منهم هدفاً لحذرهما . وتجدر الإشارة هنا الى ان هذا السلوك لم يكن قط وقفاً على المدن الديمقراطية حينذاك . فقد سلكته المدن الاوليفارشية ايضاً حيث تسيء الطبقات الحاكمة الظن في من يسعى وراء الظهور من اعضائها . لقد قيل الكثير عن الحسد الديمقراطي أو بغضاء الجماهير الطبيعية لكل من يلفت الانظار بسموه عن المستوى العام . ولكن الجدير بنا ، اذا كان لهذا الحسد من اثر ، ان نقول عنه انه يوناني المنشأ وانه جزء لا يتجزأ من سيكولوجية « البولس » . ويجب في الحقيقة ان نبحث عن اصله في اختبار عهود الاستبداد السابق ، الذي يكفي للوقوف موقفاً حذراً من الشعبيات الكاسحة التي يستطيع من يتمتع بها ان يفرض سلطته الشخصية ويستبدل النواميس بارادته . فقد قدرت سبارطة حق قدره الضرر الذي أنزله بها كبرياء الوصي بوزانياس الذي انتصر في بلاتيا ، كما ان أثينا لا تزال تحشى قيام بيسستراتوس جديد .

ان عودة السلطة الملكية ، ودخولها مرة ثانية في صميم الحضارة اليونانية سيتفق حدوثها مع نهاية الحضارة الكلاسيكية . كما ان في هذه العودة وهذا الدخول أوضح مصداق لهبوط الحضارة الكلاسيكية وزوالها .

ان هذه المبادئ العامة التي اتفقت الاوليفارشيات والديمقراطيات على الأخذ بها الجمعية قد أفضت بالضرورة الى تشابه في تنظيم السلطات العامة . فليس ، على الخصوص ، من مدينة حقيقية بدون ثلاثة أجهزة سياسية : الجمعية والمجلس والقضاة المدنيون . وقد تلتفاوت الاهمية العملية النسبية لهذه الأجهزة لا من حيث توزيع الكفاءات المختلفة فحسب ، بل ، بنوع خاص ، من حيث الذهنية والعادات التي تسيطر نشاطها . ولكنها موجودة في كل مكان . ويؤيد شمولها سوابق راسخة في القدم . ففي الدولة الهوميروسية نفسها لا يقدم الملك عادة (وهو يوازي القضاة المدنيين بمفرده) على اتخاذ أي قرار قبل الاستئناس بأراء مستشاريه ، وفي

الظروف الهامة يدعو الجمعية للالتزام . وقد جعل التطور اللاحق هذه الاجهزة اكثر متانة ،
إذ ان افضل وسيلة للحد من تجاوزات السلطة هي في وضع السلطة تحت رقابة وسيطرة اجهزة
جماعية . لذلك فان الشروط العامة لعلائقها المتبادلة قد فرضت نفسها في كل مكان .

تقوم في الاساس جمعية المواطنين ذات السيادة من الوجهة النظرية . وستلقت انظار الرومان
الذين يخضعون لعادات اخرى ملاحظة نافذة لها مغزاها ، وهي ان اعضاء الجمعية اليونانية
يشتركون في اعمالها جالسين على مقاعد خشبية ، أو درجات معدة في الارض المنحدرة .
فتثبت الجمعية بذلك رمزياً ، أمام المكتب الذي يرأسها ، سلطتها الاولى النافذة ، كما سيخال
لشيشرون . ولا يمكننا ان نتصور في غير سبارطة الحق القانوني الممنوح للمجلس والملوك في رفع
جلسة الجمعية اذا ما اتخذت « قراراً معوجاً » . ولكن لم يعمل قط بهذا الحق حينذاك . فقد
آثر الحكم في سبارطة والمدن الاوليفارسية تجنب الصعوبة على مجابتهها . فالجمعية ، وفاقاً
للانظمة ، قد تتسع لكثير أو قليل من الاعضاء ، وقد تتعدد اجتماعاتها او تقل ، وقد تفصل فيها
أو لا تفعل تأثيرات تجعل من سيادتها النظرية سيادة واقعية متفاوتة المدى . ولكن المبدأ سليم
ولا اعتراض عليه إلا في سبارطة بفعل تشريعها القديم .

اما الخلافات البيئية فتدور حول دخول الجمعية الذي وضعت له في المدن الاوليفارسية
شروط مقيدة ، متفاوتة جداً على كل حال . يطيب لهذه المدن مثلاً تأخير السن القانونية التي
يحددها غيرها حوالي العشرين ، وتوجد الفوارق بين المواطنين في ما تفرضه عليهم من رسوم
مختلفة للاشتراك في الاقتراع ، ويذهب بعضها أحياناً الى حرمان الذين يمارسون ، أو حتى الذين
مارسوا ، مهنة أو تجارة صغيرة ، من هذا الحق . فينتج من ذلك ان سيكولوجية الجمعية وسلوك
اعضائها يختلفان كثيراً باختلاف المدن . يتمتع المشتركون الحاضرون مبدئياً بحقوق متساوية
داخل الجمعية لا سيما حق ابداء الرأي . ولكن مراعاة الفوارق الاجتماعية تجعل من هذا المبدأ
حرفاً ميتاً في المدن الاوليفارسية ، مما يبرّر تباهي الأثنيين بأن ديموقراطيتهم مبنية على
« المساواة في حق الكلام » التي هي بالفعل عندهم واقع راهن .

على الرغم من هذه الفوارق ، ليس شمول وجود الجمعية مجرد تشابه سطحي فحسب . فانما
هو يعني ان حق الاشتراك في حياة المدينة السياسية حق شخصي لا يفوض به احد : فالليونان
الكلاسيكية تجهل النظام التمثيلي ولا تدرك معنى لغير ممارسة السيادة المباشرة . وليست هذه
الطريقة بالطريقة السهلة ، على الرغم من انكماش رقعة المدينة العادية . وقد تفضي أحياناً الى
مجرد نظرية ، كما حصل للمواطنين الذين اسكنتهم أثينا في خلقيدونيا أو في الهلليسيون
(الدرنديل) ، محتفظة لهم بمقهم النظري في الاشتراك في اعمال الجمعية . فهل مرد هذا الى قوة
الاستمرار ؟ ربما كان ذلك ، ولكن يجب ان نضيف الى هذه القوة سبباً آخر هو في الاساس
من نفوذها ، أعني به الحوف من ان يقوم ، بين المواطن والدولة ، وسيط لا لزوم له لمن لا

يزعجه الحضور شخصياً ، او وسيط يهدد بالخطر استقلال المواطن وسيادته .

لا ريب في ان اليونان الكلاسيكية تتشابه في ذلك بكثير من المجتمعات القديمة ، ولا سيما روما ، حيث يؤدي فقدان النظام التمثيلي الى نتائج أشد مغايرة وتناقضاً . ولكن طريقه التصويت ، على تنوعها في المدن المختلفة ، وفي المدينة الواحدة احياناً ، تكشف عن ميزة خاصة بالاغريق دون غيرهم . فالجمعيات الرومانية تصوت بقراراتها التي تتمتع كل واحدة منها بصوت ، دونما نظر الى عدد الاعضاء الحاضرين ؛ ولذلك فالمساواة المعترف بها قائمة بين الفئات ككتل ، لا بين المواطنين كأفراد . اما في الجمعيات اليونانية فالتصويت ابدأً فردي فقط ، على ان ينصهر كل عضو ، عند جمع الآراء النهائي ، في مجموع واحد . واننا لنلمس هنا ايضاً ذاك الحرص نفسه على المساواة بين المواطنين المنعزلين وذاك التصميم نفسه على حماية الاستقلال الفردي وتلك الحشية نفسها من ان يقوم بين المواطنين والدولة جهاز يستطيع الحد من التماسك المباشر المتبادل بينهما .

قد يبرز المجلس ، وهو الجهاز السياسي الثاني المشترك بين كافة المدن اليونانية ، اكثر اهمية ايضاً من الجمعية . فليست هذه الاخيرة ، في بعض الاوليفارشيات المتطرفة ، سوى جهاز شكلي فحسب . اما المجلس فيعقد اجتماعات متكررة في كل المدن ويلعب دوراً هاماً في المدن الديموقراطية ودوراً رئيسياً في المدن الاوليفارشية من الناحيتين النظرية والعملية .

انه في كل مكان يراقب نشاط القضاة المدنيين ، ويؤمن الاعمال الادارية الجارية وتنفيذ مقررات الجمعية ، ويعدّ هذه المقررات ويوجه بالتالي سياسة المدينة . ولكن الانظمة الاوليفارشية توليه ، بالإضافة الى ذلك ، صلاحيات قضائية واسعة في الحقلين المدني والجنائي ، ومهمة العناية بالمحافظة على العامة والخاصة ، وهي مهمة يزيد في اتساعها غموض الكلام الذي يحددها . وبما يجعله ذا حظوة لدى هذه الانظمة ويحدو بها لتوسيع صلاحيته او بالاحرى للامتناع عن تخفيضها ، كونه هيئة استشارية محدودة العدد ، لانه بذلك اقل تعرضاً للانجرافات الطائشة ، ولان تشكيله ، بنوع خاص ، يمكن ان يحصر في حدود آمنة . وقد يعين اعضاؤه احياناً مدى الحياة ، ولكن يجب ان تتوفر فيهم لذلك بعض الشروط ، لا من حيث السن والثروة فحسب ، بل من حيث النسب احياناً ايضاً . وهكذا يتاح للتأثيرات الاجتماعية ولقوة التقاليد ان تلعب دورها فيه بمزيد من السهولة .

بيدان الديموقراطيات ، اذا هي خفّضت هذه الحواجز وحاولت بشتى الوسائل تشكيل مجلس يكون صورة مصغرة عن مجموع المواطنين ، تشعر بحاجة لان تتحاشى ، بوجود هذه الهيئة المحدودة وصلاحياتها ، الاخطار الرئيسية العملية لسيادة « ديموس » (شعب) يعبر عن آرائه في جمعية مرتجلة وسريعة الزوال . فالمجلس الذي يمارس صلاحياته سنة كاملة يؤمن حداً ادنى من الاستمرار ويدرس مسبقاً في الوقت نفسه القضايا المعروضة للنقاش او تلك التي يجب البت بها .

وهكذا فإن الواقع يفرض على المنطق المجرّد تسليّات وتنازلات لا مناص منها .

القضاة المدنيون لكل مدينة يونانية ، أخيراً ، قضاتها المدنيون الذين يختلف اسمهم وعددهم وطريقة وشروط تعيينهم وتوزيع الصلاحيات فيما بينهم . ولكن بعض الخطوط مشتركة بينهم في كل مكان ، ويستخلص منها - وليس هذا الاستخلاص بالانطباع الفرار - ان القضاء موضع شبهات مركزة وان ما من احتياطات الا يتخذ حياله .

يعين القضاء لسنة واحدة فقط ، وباستثناء الرؤساء العسكريين - وقد تأكد هذا الاستثناء في أثينا - لا يعاد انتخابهم أو لا يعاد فوراً على الأقل . وهم كثير والعدد في كل مكان حتى في الوظيفة الواحدة ويخضعون لنظام جماعي يوزع السلطة بين عدّة قضاة أصليين . وقد تمشت روما أيضاً على هذه المبادئ الحكيمة . ولكن الاغريق قد ذهبوا في حذرهم الى ابعد من ذلك . فلا يستطيع القضاء في اي مكان ان يتخذوا ، مبادهة ، قراراً هاماً . وليس سوى الضرورات العسكرية ما يوجب ، حين يقودون الجيش ، اعطائهم المزيد من المندوحة . ولكن دورهم العملي ، في الحقل الدبلوماسي والشؤون الداخلية ، يقتصر في كل مكان على التنفيذ فقط . يخضعون في كل مكان لمراقبة المجلس وللمراقبة الجمعية أحياناً . وهم في كل مكان مسؤولون عن اعمالهم ، حتى اثناء ولايتهم في اغلب الاحيان ، ولكن دائماً بعد نهايتها . وليست الامثلة ما يعوزنا ، حتى في المدن الاوليفارشية ، عن الاحكام القاسية الصادرة ضدهم .

ان في هذا لاكثر من فوارق عارضة بين اجهزة مختلفة . ان فيه لعمرى دلائل على مفهوم منطقي خاص بالمدن اليونانية . فالمفهوم الاكمل للقاضي ، الذي يستتبع سلطة مستقلة ملازمة ، روماني لا يوناني . وما كانت المدن ، ككل جماعة بشرية مصممة على العمل ، لتستغني عن « طليعة » . ولكنها لم ترض قط ان تكون هذه « الطليعة » أو ان تصبح سيّدة . ولذلك فقد سعت دائماً الى تجنب هذا الخطر الممكن .

الاوليفارشيات والديموقراطيات :
المواطنون الايجانيون
والمواطنون السليبيون

اذا ما اقتصرنا على الخطوط الكبرى ، اتضح لنا ان اوجه التشابه بين الاوليفارشيات والديموقراطيات لا تتعدى ما ذكرنا . ومرد اكثرها ، كما سبق ورأينا في سياق هذا البحث ، مثل اعلى مشترك للاستقلال والحرية هو ، كما يبدو لنا ، هدف الاغريق

الرئيسي في العهد الكلاسيكي . وهذا يعني استقلال وحرية المدينة والمواطن على السواء . وفي سبيل توفير هاتين النعمتين الكبيرتين للمدينة والمواطن يتوجب على المجموع والفرد التضامن والتعاوض المتبادل . فصولاً للاستقلال ، تحتاج المدينة الى تقاضي مواطنيها الفعّال الحر . وهي مقابل ذلك تسعى بشتى الطرق وراء توفير استقلالهم الفردي والمحافظة عليه .

يحل التناقض محل التشابه وتتسع الحفرة بين الاوليفارشيات والديموقراطيات حين يتوجب تحديد المواطن الحقيقي ، اي ذاك الذي له من الحكمة والتجربة والمصالح ما يكفي لمنحه حقوقه السياسية بكمالها . هنا لعمرى يمر الخط الفاصل بين النظامين .

ترفض الديمقراطية التفريق بين مواطنين ايجابيين ومواطنين سلبيين . فالقاعدة فيها هي « الايزونوميا » أي المساواة أمام « الناموس » . ومن الطبيعي ان تقدم أننا المثل بقوة منطق لا يتنافى مع حد أدنى من التسليم للضرورات العملية بنوح خاص . فيكفي ان يكون الانسان مواطناً حتى يتاح له دخول الجمعية وحق ابداء الرأي فيها والفوز بعضوية المجلس وممارسة اكثرية مهام القضاة . ولا ريب من حيث المبدأ ان هنالك بعض الشروط المالية لوظائف القضاة او لأهمها على الأقل . ولكن هذه الشروط يدركها العفاء ، فباخص الأراكنة ، منذ منتصف القرن الخامس . وليس سوى أمناء الخزينة من يجب ان ينتسبوا الى الطبقات الثرية حتى يتمكنوا من تقديم الضمانات اذا اساؤوا التصرف . اما قواد الجيش والاسطول الذين يتصرفون بالاعتمادات العسكرية والدبلوماسية فيكفي ان يملكوا عقارات في الاتيك واث يكون لهم في الوقت نفسه ولد شرعي . ويستدل من هذا الشرط الاخير ان الغاية المتوخاة ليست تأمين رهن احتياطاً لدعوى ممكنة ، بل ضمان مرشحين يهتمون لأمر المحافظة على ارض الوطن بحافز غيرتهم على عائلة واملاك غير منقولة ، وكلاهما معرض جداً للخطر في ظروف الكوارث العسكرية : فالهدف اذن توفير الرؤساء المستعدين لكل تضحية ، تهرباً من اولئك الذين لا تشدهم الى الوطن صلة العائلة والبيت . تلك هي اهم الفوارق في المساواة النظرية بين كافة المواطنين . ويجب ان نضيف الى ذلك ان القرعة قد اعتمدت قاعدة في تعيين المستشارين والقضاة باستثناء اولئك الذين تستلزم مهمتهم معارف فنية ، كالرؤساء العسكريين مثلاً . ولادراك ظهور هذه الطريقة ، يجب ان نعود بالذاكرة الى مبررها الديني ، كما يجب ، لادراك شمولها ، ان نفصح مكاناً خاصاً لكابوس التأثيرات المالية والنسبية والدسياسة العادية والمخاللة نفسها ، وكان من شأنها كلها ان تقضي على المساواة التي هي محك الديمقراطية وإثمن فتح حقيقة « الديوس » .

على بقيض ذلك ، تفرق الاوليفارشيات بين المواطنين ، آخذة باعتبار السن والملكية العقارية ومجموع الثروة والنسب ، وفاقاً لطرائق متنوعة جداً ، متأثرة بهذا او ذاك من العوامل على حدة او بعدة عوامل في آن واحد . وليس هنالك نموذج للأوليفارشية ، بل اوليفارشيات قد يتفاوت عدد حكامها ، حتى ان بعضها قد اعتبر ، في نظر المصنفين الاقدمين ولا سيما ارسطو ، كديموقراطيات معتدلة . ولكنها انتهت كلها الى تخفيض عدد المواطنين الذين يحق لهم الاشتراك في الحكم بالنسبة الى عدد المواطنين العام . وتشعر كلها ، في اعماقها ، بحنين دائم الى الانظمة القديمة ، اذ كان الاشراف ، بفعل تفوقهم ثروة و « صلاحاً » ، يسيطون حولهم ، بقوة التقاليد والاعراف ، نفوذاً مسيطراً . وهي لا تسلم إلا بما هو ضروري للتطور العام . فحيثما تبدلت الحياة الاقتصادية بعض التبدل وتوسعت بعض التوسع ، اضطرت هي للاعتراف ببعض الحقوق للثروة حتى المنقولة منها . غير ان الفقر ، وهو عيب لا دواء له ، لا يحرم من الوظائف العامة فحسب ، بل غالباً ما يحول دون دخول الجمعية التي لا دور نافذ لها على كل حال . وهكذا

تكوّنت المعادلة العملية « اوليغارشيون -- اغنياء » التي تحوّل النزاعات السياسية الى منافسات اجتماعية ، منذ نهاية القرن الخامس بنوع خاص .

٣ - الديمقراطية اليونانية

تقدم الديمقراطية من الخطأ الفادح ان نتصور ، انطلاقاً من اولوية أثينا الفكرية والفنية في عهد بريكليس ، ان الديمقراطية سادت العالم اليوناني منذ القرن الخامس . فما زالت الانظمة الاوليغارشية ، حتى في ذلك العهد ، كثيرة وقوية ، لا بل انها تسيطر سيطرة تامة في اليونان البرية على الاقل . بيد ان النصر الشامل الذي عرفته ، لسنوات معدودة ، بفضل هزيمة أثينا في حرب البلوينيز وبفضل نشاط سبارطة العطوف بعد انتصارها ، لم يدم سوى فترة قصيرة الأمد جداً . فلم تلبث الديمقراطية ان استقرت في أثينا ، وكانت المصاعب الاولى في سبارطة التي اصطدمت بتصميم الحكومات ، حتى الاوليغارشية ، على الاستقلال ، كافية لأن تتنفس الديمقراطية الصعداء في كل مكان .

استمر تقدم الديمقراطية طيلة القرن الرابع الذي هو قرن انهيار سبارطة بعد انكسارها في لوكترا في السنة ٣٧١ ، وفي الوقت نفسه قرن تسرب الديمقراطية الى اليونان البرية حيث تتوسع توسع بقعة الزيت . ويعود الفضل في وثبة الديمقراطية هذه ، قبل اثينا ، الى طيبة التي تتبنى الانظمة الديمقراطية وتعممها في كافة انحاء بيوسيا ، بعد تحريرها من الاحتلال اللاكيديموني في السنة ٣٧٨ . وبعد معركة لوكترا ادخلت جيوش طيبة هذه الانظمة الى قلب البلوينيز ، في اقل المقاطعات أجنبية تطوراً حتى ذلك العهد .

بيد ان التدخل المقدوني ، الذي يخطيء من يعتبره خدمة جلّى للاوليغارشين ، قد اخر هذا التطور تأخيراً لامراء فيه . فمن المحتوم على فيلبوس ، في صراعه ضدّ المدن اليونانية التي يحكمها الديموقراطيون اجمالاً ، ان يستميل عطف خصومهم ؛ ومن المحتوم ايضاً على هؤلاء ، شأن كثير من الاغريق الذين يؤثرون الحزبية على الوطنية ، ان يستجيبوا بصورة عامة لدعوته ، بحيث ان انتصاره هنا او هناك يغدو بالتالي انتصاراً لهم . ولكن بالرغم من هذا الحادث العارض الذي اقتعلته انتهازية دبلوماسي وقائد واقعي الى اقصى حدود الواقعية ، فان مصير الصراع الذي قام ، منذ قرون ، بين هاتين المثلّيتين لا يدع مجالاً للشك عند نهاية العهد الكلاسيكي . فالاسكندر يقيم انظمة ديموقراطية في المدن اليونانية التي حررها في آسيا من السيطرة الفارسية . وسيتسابق بعض المتنافسين ، ممن سيتنازعون إرثه ، في المبادرة الى مجاملة الديموقراطيين في اليونان نفسها . ولن يبقى للاوليغارشين حينذاك الا ان يتدبروا امرهم المفعول بايجاد انظمة مبتكرة كي يخفوا ، وراء ستار ديموقراطي ، واقعاً آخر غير ديموقراطي .

فما هو تحليل اندفاع الديمقراطية هذا ؟ لقد لعبت الظروف الواقعية دورها ، واهمها هبوط سبارطة . ولكن نظرة واحدة الى التطور الذي رسمنا خطوطه الكبرى تكشف لنا عن اهمية حرب البلوينيز . فإن هذه الحرب ، مجد ذاتها ، تفرض نفسها على التاريخ باتساعها وطول امدها .

ثم انها ، بنوع خاص ، كانت منطلقاً لسلسلة حروب القرن الرابع التي عقيبتها وأثت على ما سلم من التدمير في كافة مناطق العالم اليوناني دون استثناء . وقد ضعفت هذه الحروب ، في كل مكان ، التوازن السابق ، وحررت قوى مستترة ، جهلت نفسها فيما مضى وقدرت ، منذ ذاك الحين ، الخدمات التي قدمتها للمدينة . وأفقرت الطبقة الريفية المتوسطة التي كانت تدعم ، بعدد افرادها وثباتها ، التقاليد القديمة . وأبرزت أو زادت الخصومة بين الاغنياء والفقراء التي لم تكن من قبل سوى مظهر من مظاهر الخصومة بين النظامين المتقابلين ، والتي غدت اليوم مظهرها الرئيسي . فإذا ما عرضت المشكلة على هذا الشكل بمحدثها ، موجزة ومعتمدة من عناصرها المعنوية التقليدية ، يتحتم والحالة هذه ، تغلب الديمقراطية لأنها تتفق ، أكثر من منافستها ، مع بعض النزعات العميقة الجذور ، على الأقل في الحضارة اليونانية الكلاسيكية . فالحرية وتفتح الشخصية الانسانية يستتبعان بالضرورة فكرة المساواة ، كما ان المفهوم المتبع للمدينة والمواطن يوصي منطقياً بأنظمة سياسية تمنح الحقوق نفسها لجميع اعضاء الهيئة المدنية . وكان من الواجب ، لإيقاف الدفعة الديمقراطية ، تبديل مثل « البولس » الأعلى بالذات ، وهذا ما لا يتوفى إليه ، على الرغم من حدة هجماتهم ، فلاسفة القرن الرابع المشهورون اجمالاً برغبتهم عن الديمقراطية . فكانت دعاوتهم ، عند سواد معاصريهم ، صرخة في واد ..

بيد ان الديمقراطية اليونانية لم تسر في المنطق الى ابعد من هذا الحد . وقد يستهوننا ان نصمها بالتناقض لانها حصرت في مواطنيها دون غيرهم ، حقوقاً كان من المتوقع ان تمتنعها لغيرهم بمزيد من السخاء . أجل يبدو في تعاليمها بعض دلائل الشمول . ولكن هذه التعاليم لم يتسع نطاقها ، لا بل انها لم تشمل أناساً يقيمون في اراضيها ، منذ اجيال أحياناً ، ويمارسون عملياً حياة المواطنين اليومية . ان هذه الثمرة ، في الناحية الانسانية من الحضارة اليونانية الكلاسيكية التي تشدنا إليها ألف صلة وصلة ، من الخطورة بحيث لا يجوز ان نشير الى وجودها مجرد اشارة فقط .

صحيح ان أثينا ، مثال الديمقراطيات اليونانية ، لم تفكر هنية واحدة بالغاء الرق . واكتفت من هذا الأمر ببعض المستحدثات الشرعية التي رافقت بعض ما طرأ على الأخلاق من رفق وخففت بعض الشيء من مصير الأرقاء فيها بالمقارنة الى المدن الاخرى .

صحيح ايضاً ان أثينا قد اعتمدت ، حيال الأجانب ، حرماناً شرعياً رافق تقدمه تقدم الديمقراطية . ففي اوائل القرن الرابع ، فكر صولون باعطاء صفة المواطن لمبعدي المدن الاخرى وللأجانب الذين يأتون مع عيالهم للعيش والعمل في « الأتيك » . وحين قام كليستين ، بعد ذلك ، باعادة توزيع المواطنين الطبقي ، استفاد من الظرف لتسجيل مقيمين أجانب عديدين كمواطنين . ولكن هذه المعاملة الكريمة زالت خلال القرن الخامس ، ومع ذلك فقد بقيت أثينا مضيافة . وعاش هؤلاء المقيمون على اراضيها بأعداد كبيرة وكانوا بنشاطهم عنصراً

ضرورياً لازدهارها الاقتصادي . فاختلطوا بالمواطنين وعاشوا مثلهم على مساواة في المهنة والثروة ، أقله في المدينة ، إذ ان الريف لا يستهويهم بسبب حرمانهم من حق التملك . وتلقى اولادهم تربية اولاد المواطنين نفسها ، وفي المدارس نفسها . واخضعوا للواجبات العسكرية والمالية نفسها التي أخضع لها المواطنون ولم يميزهم عنهم ، على هذا الصعيد ، سوى رسم سنوي طفيف فرض عليهم . وحوكموا أمام المحاكم نفسها ، ووفقاً للقانون نفسه . واشتركوا أخيراً اشتراكاً وثيقاً بحياة المدينة الدينية والأدبية . ولكن لا مكان لهم في حياة المدينة السياسية . فلا يسمهم الاشتراك فيها إلا بمصوهم على صفة المواطن ، وقد بخلت أثينا بهذه الأعطية . وفي الظروف العادية لا تمنحها أثينا إلا لبعض الأفراد مكافأة لهم على بعض الخدمات الجلّى في مختلف الحقول . ومن النادر جداً ان يكون المنح جماعياً .

من أوجه التناقض أيضاً ، أن تتسنى أثينا ، في عهد متأخر ، بناء على اقتراح اوسع رجال الدولة الديموقراطيين نفوذاً وأشهرهم ذكاء ، تشريعاً يتصف بنزعة العنصرية الظاهرة . فخلال وقت طويل - وفي غير أثينا أيضاً - حق لمن كان ابوه مواطناً وأمه أجنبية ان يكون مواطناً : وهذه كانت حال كليستين وحال كيمون بن ميلتيادس مثلاً . ولكن القانون الصادر في السنة ٤٥١ - ٤٥٠ والذي اقترحه بريكلئس نفسه يقصر المواطنة على الاولاد الشرعيين على ان يكون كلا الوالدين أثينيين . اما الاولاد الآخرون فلا يستطيعون الحصول عليها إلا بقرار فردي لأن القانون يجعل منهم أنغالا أو اجانب . وليس استصدار هذا القرار بالأمر السهل : فقد وجب ، بصورة خاصة ، ان يفقد بريكلئس اولاده الذين أنجبته لهم أمهم الأثينية حتى يصدر مرسوم بمنح صفة المواطن للولد الذي انجبته له أسباسيا الملية .

كان بريكلئس هذا نفسه منشئ الامبراطورية الأثينية الرئيسي في
الديموقراطية والاستعمار
القرن الخامس التي قضت عليها حرب البلوبونيز والتي أراد أثينيو

القرن الرابع ، الذين ما فتئوا يحنون اليها ، إعادة انشائها . ومن النافل هنا ، ان نسهب في محاولة رسم صورة للاستعمار الأثيني . فإن قسوته التي لا تعرف الشفقة ، وتتصف بالمبرك في القرن الرابع ، وتجاوزاته المستمرة على حريات اولئك الذين تعاملهم أبداً معاملة « الرعايا » على الرغم من انهم يحملون اسم « الحلفاء » ، وعاء متطلباته الثقيل في شتى الحقول ، خطوط لا يستطيع احد ان ينكرها ، ولا ينكرها احد بالفعل . يحاول البعض العثور على خشبة الخلاص في ديموستينس الذي توفق فعلاً ، في بعض نفحات خطبه الرائعة ، الى وضع برنامج اتحاد حر تدخله الدول اليونانية للدفاع المشترك عن استقلالها . ولكن خطباً أخرى للخطيب نفسه تعبر عن التأسف على سيطرة سالفه ، مما يجعلنا على الاعتقاد بأن المشاريع في سبيل تأمين المساواة بين المشتركين في المجهود العام لم تكن سوى مجرد حيل أخيرة فرضها تهديد فيلبوس المتفانم . واكثر عدداً هم المؤرخون الذين يحاولون ، دفاعاً عن أثينا ، الاستشهاد بالأمثلة الرائعة ، من فكرية

وفنية ، التي وفّرتها للحضارة اليونانية ؛ فقد سبق لبريكليس ، اذا صدفت رواية توسيديد ، ان قال : « أثينا مدرسة اليونان » . أجل ، ولكن المعلم قد ققاضى بشئ الوسائل من تلامذته رسوماً مرتفعة . فليس بعد العيان بيان : اذا كانت هنالك مدينة يونانية توفرت لها الامكانيات ، بفعل قوتها ونفوذها والمبادئ نفسها التي اعتمدتها في تنظيمها الداخلي ، لتحطيم الحواجز التي قسّمت العالم اليوناني مدناً متعدّدة والسموّ بهذا العالم الى وحدة سياسية عليا ، فان هذه المدينة دون ريب هي أثينا . وقد يستهوي انسان اليوم ميل دائم الى الاعتقاد بأن الواجب كان يفرض على أثينا القيام بذلك ، بمجرد تمكّنها من محاولة القيام به . ولكنه مضطر للاعتراف بأنّها تهربت من هذا الواجب . فكّم كنا نتمنى التوفيق الى بادرة او بداية ، ولو وضعية ، تتم عن توسع المدينة الاثينية وانفتاحها ، ولكننا لا نرى ولا نلص شيئاً يذكر يوازن ابقاء المقيمين الاجانب في ظل نظامهم المتأخر او قانون السنة ٤٥١ - ٤٥٠ .

تبرز الديمقراطية الاثينية ، والحالة هذه ، اذا ما نظرنا إليها بمفاهيمنا العصرية ، وكأنّها أوليغارشية فعلية لا يميزها عن الأوليغارشيات وليدة زمانها الحقيقية سوى انها اوسع عدداً . ولكن المفاهيم العصرية لا تكوّن قياساً كاملاً . والدليل على عدم كمالها يتضح بتسليم كافة المجتمعات القديمة بالرق كضرورة طبيعية او كواقع أساسي . فمن حيث التحديد ، يجب ان يتمتع المواطن بحريته الشخصية . فكيف يمكن ان يصبح العبد مساوياً من الناحية السياسية بمن يبقى سيّده ، وكيف يمكن تجنب هذه الفظاعة دون قلب التنظيم الاجتماعي رأساً على عقب .

اما من حيث موقفها من الاجانب ، فيجب النظر الى الديمقراطية اليونانية كما هي ، مع ما تستلزمه من ضيق أفق وأثنية ، ولا غرابة بالتالي في ان تكون احدى الأوليغارشيات اكثر ترحيباً بهم ، اذ ان المواطنة السلبية ، لم تحظ بأية مكانة في نظرها . ثم ان عظماء الاشراف من جهة ثانية ، كانوا ابعد من ان يرضوا بحصر تعطشهم للنشاط والمجد ومطامحهم الزوجية وشائج قرباهم في حدود « البولس » الضيقة . وقد استهدف صولون ، من استمالة الاجانب ، انهاء النشاط الاقتصادي ، كما استهدف كليستين ان يصهر ، في الهيئة المدنية التي فرض عليها نظاماً جديداً ، عناصر معادية للنظام القديم . فحين تحررت الديمقراطية المنتصرة من نفوذ العائلات الارستوقراطية الكبرى ، وحين أفضى الازدهار الاقتصادي الثابت الاقدام الى تكرار المقيمين الاجانب ، كان من الطبيعي ان يتبدّل سلوك الاثينيين .

بالاضافة الى ذلك ، وفوق الاعتبارات الانتهازية ، يجب ان نفسح مجالاً لمثل المدينة الاعلى بالذات . فيجب ألا يغرب عن بالنا ان المدينة اليونانية ليست اقليم المواطنين بل مجموعهم . لذلك فسلامة حدودها البشرية اهم من سلامة حدودها الاقليمية . ثم ان المدينة اليونانية لا تعتبر استقلالها سليماً ومؤمناً إلا اذا اقامته على سيادتها . فإنما هي اثنانية المدينة الطبيعية على

الصعيد الدولي التي ترتدي ، بانتقالها الى الصعيد القومي ، شكل انانية المواطنين. وبمقدار ارتفاع قيمة حسنات المواطنة المادية والمعنوية ، يتوجب التمسك الحريص بحق الانتفاع بها . وبمقدار اقبال الاجانب على عاصمة الامبراطورية وعلى وسط ايجه التجاري وعلى مركز اشعاع الحياة الفكرية والفنية ، يزداد خطر ادخالهم في نظام المواطنة ، لأن من شأن هذا الادخال ان يغتمر المدينة ويقضي على صفاتها المميزة التي تجعلها هي بالذات لا غيرها . فماذا نقول اذن عن صهرها في دولة أرحب اتساعاً يصبح فيها جميع الاغريق مواطنين والمدن ذات السيادة مجرد قرى ؟ لو ان هذا الحلم ، الذي نراه اليوم طبيعياً في خضم الوحدات القومية ، راود فكر اغريقي في ذاك العهد ، لرأى فيها فظاعة ما بعدها فظاعة ، لأن البولس كانت في نظره المعطية الاساسية والاطار الطبيعي لكل حياة متحضرة .

فلا تناقض اذن في الديموقراطية اليونانية التي حققت المثل الاعلى الكلاسيكي باقامة المساواة بين جميع المواطنين وانقادت له ايضاً باقصار هذه المساواة عليهم وبشبوتهما في وجه تسلل الاجانب ؛ كما ان بريكليس ، بقانون السنة ٤٥١ - ٤٥٠ وبسياسته الاستعمارية ايضاً ، لم يناقض عمله الداخلي ، بل اكمله على قناعة منه انه إنما يعمل على توطيده .

الفصل الثالث

الحياة المادية والاجتماعية

١ - المجتمعات الريفية

من حيث ان اليونان تجزأت سياسياً الى مدن عديدة ، ظهرت الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها بمظاهر متنوعة جداً . فالأسفار بحرية على العموم بسبب فقدان الطرقات . ولكن مدناً كثيرة نائية عن المرافئ تتصل بهذه المرافئ وبمدن داخلية اخرى بواسطة مسالك سيئة فقط . لذلك ، وباستثناء بعض النقاط المحطية ، لا يمتزج الرجال والافكار ولا تقايض المحاصيل إلا بقدر محدود جداً . فعنصر الوحدة الفريد ، اذا ما اردنا ، بأي ثمن ، اكتشاف مثل هذا العنصر ، يكون والحالة هذه سيطرة الحياة الريفية في كل مكان تقريباً ، اذ ان سواد سكان اليونان يعيشون في الريف ومن الأرض . اما توسع بعض المدن وتجميلها وحيوية نشاطها البحري فيجب ألا نكوّن عنها صورة خادعة .

ولكن هذه الحياة الريفية نفسها ، على الرغم من مماثلة ظروفها العامة تربة ومناخاً ، لا تتخذ الاشكال نفسها في كل مكان .

ان في بعض المناطق ثروات عقارية طائلة . وهذه المناطق انما هي تلك التي صغار الملاكين تتميز ارضها بالخصب اقله لزراعة الحبوب ، او تكثُر فيها المراعي التي تسمح بتربية المواشي الكبيرة لا سيما الخيل ، أي ، على العموم ، المناطق السهلية التي يجري فيها نهر دائم الهمي تقريباً . ويتمتع المحطون مالكو الارض بقدر من الثروة يتيح لهم اجراء الاختبارات فيها واعتماد الاساليب الزراعية الجديدة . فاللهيم يعود الفضل في انتشار استعمال الاسمدة والمروج الصناعية في القرن الرابع ، فأفضى ذلك الى تخفيض مساحات الارض البور وانتشار تربية المواشي . ويرسم كسينوفون في كتابه الاقتصاد ، صورة مثالية للسيد النابه

الذي يتلف ذهنه كل جديد ويهتم بفهم لمصالحه ويدير بحزم شؤون بيته بواسطة زوجته التي يغدق عليها النصائح الحيرة وشؤون اراضيه التي يرافق استثمارها عن كتب .

ان كبار الملاكين هؤلاء لا يعملون بأيديهم . فهم النخبة الاجتماعية في الارياف وحتى في المدن ، لانهم ، بفعل نبلهم ، مدينون بأمالكهم لجدودهم . يقضون اطيب ايامهم ، بعد الاستسلام لأهواء شبابهم في المدينة ، في بيتهم العائلي القديم المتوسط عقاراتهم . وما مثل الارستوقراطية القديمة الاعلى في الحقيقة سوى مثلهم بالذات : فلا تمنعهم هواية التمارين الطبيعية والصيد والفروسية والاطعمة الفاخرة من تقدير قصائد بنزاروس ، حتى ولا مآسي أوربيد التمثيلية في مقدونيا الشديدة البرد . ومن حيث انهم اشراف محليون ، فانهم يهتمون حياة القرية او المقاطعة الصغيرة اللتين تتقدم فيهما عائلتهم على غيرها واللتين ينظر الجميع الى عبادتهما كإراث خلفه لهم جدودهم . ويلعب اشهرهم نسباً واغناهم ثروة واكثرهم إقداماً وذكاء دوراً هاماً في حياة المدينة نفسها . ولكن نفوذهم حاسم في دائرة اقل اتساعاً . فالعمال الزراعيون المرتبطون بهم بمثابة زبن يتفانون بالضرورة في سبلهم . ويتأثر بهم ايضاً فلاحو الجوار الاحرار حتى ولو لم تربطهم بهم اية رابطة قانونية . وقد يصح ان نتكلم ، في بعض المناطق المتخلفة كتساليا ومقدونيا ، عن الاسياد واصحاب الاخاذات لان هؤلاء قد توصلوا ، عند الحاجة ، لان يجندوا المزارعين في اقطاعاتهم لاجل الحرب الخارجية او الاهلية .

وهناك اكثر من ارتباط اقتصادي أو امانة في الخدمة احياناً . فليس من مكان الفداوية
قط يجري فيه الاستثمار على نطاق واسع بواسطة الأرقاء الموزعين فرقاً بمراقبة رئيس العمال : لان هذه الطريقة لن يعتمدوا احد قبل الرأسمالين الرومان . ولكن الفداوية واقع راهن هنا او هناك ، وهي تعني استثمار الارض بواسطة رجال مرتبطين بها غير مسموح لهم بمغادرتها . واذا كان الفداديون ، في تساليا او كريت مثلاً ، ملك صاحب الارض ، فان اكثر الحالات غموضاً هي حالة الفداديين الرسميين في سبارطة .

للدولة وحدها حق تحرير فداديها ، وهي التي وضعت نظامهم وألحقهم باقطاعات لم تمنح مواطنيها مبدئياً سوى حق الانتفاع بها . ينشئ الفداديون عائلاتهم بحرية ويزرعون على هوام قطع الأرض التي أقاموا فيها . ولا يتوجب عليهم ، للمواطن الذي شخصت به هذه الأرض ، سوى فريضة عينية سنوية تحدد مرة واحدة ، ويحتفظون بحق التصرف تصرفاً كاملاً بالفائض من المحاصيل .

يبدو مصيرهم ، من الناحية الاقتصادية ، محتملاً على الأقل . والدليل على ذلك ان ستة آلاف فدادي ، في اواخر القرن الثالث ، يمتلكون المال الكافي لشراء حريتهم من الدولة بدفع مبلغ يوازي ، في ذاك العهد ، السعر الوسطي لعبد جيد . اجل هنالك واجبات اخرى تنوء عليهم بثقلها : الخدمات المنزلية التي نجعل نوعيتها ، وتقديم الخدام للمساعدة على حمل العدة وحتى

تقديم المشاة الخفيفي التسلح الذين يرافقون المواطن في الحملات العسكرية . ولكن ما يصعب حالتهم ، على ما يبدو ، هو التدابير الشرطية التي تتخذها سبارطة بحقيهم : كاطلاق الحرية للفتيان السبارطيين ، خلال خدمتهم العسكرية ، بقتل كل فداي يتجول ليلاً ، وكنحظير حمل الاسلحة عليهم . ولعل المسؤولين في سبارطة كانوا يشتهون خاصة بالمستينين الذين استعبدوا منذ القرن الثامن وثاروا بعد ذلك اكثر من مرة . ولكن اضطراب حبل الامن قد استمر حتى بعد استعادة مستينيا استقلالها على يد ايبامينونداس في السنة ٣٧٠ ؛ كما ان الملوك الثوريين ، كليومينوس الثالث ونابيس ، في سبارطة الهلينية ، قد لاقوا عضداً لدى الفداديين . فليس الفداي ، كمزارع مضطر لدفع فريضة غير مرهقة ، من تألم بنوع خاص من هذا الوضع وهذه القسمة ، بل الفداي كإنسان يتزايد إحساسه بكرامته في عالم تسير فيه الفردية بخطوات حثيثة .

غير ان مناطق الثروات العقارية الطائلة ، حيث تزرع الارض بواسطة عمال صغار الملاكين زراعيين او فداديين ، لا تغطي سوى قسم ضئيل من مساحة ارض اليونان . فهناك نظام زراعي آخر يسود البلاد بشكل ظاهر جلي ، اعني بنظام الثروة العقارية المحدودة التي يستثمرها مالكيها بالذات . نعرف هذا النظام معرفة تامة في افريقيا ولكننا نعرف انه يسود في غير مكان ايضاً ويكون بلا مرأ المثل الاعلى لسواد الاغريق الاعظم . وهو نفسه تلك الحياة التي سمى وراها في القرنين الثامن والسابع من هاجر منهم الى المستعمرات المؤسسة حول حوض البحر الابيض المتوسط . وهو نفسه الحياة عينها التي سيسعون وراها في الشرق ، متتبعين خطى الاسكندر ، او ملين نداء الملوك الهلنيين .

اما في أثينا فإن اعادة نظام الاملاك الصغيرة وحمايتها فيها مأثرة القرن السادس ، والقرن الخامس هو عصرهما الذهبي . فلا أجنب في الارياف لأن المبدأ الرئيسي هنا ، شأنه في كل النواحي ، يقصر على المواطنين حق تملك العقارات . ثم أدى توزيع الارث بين البنين الى تجزئة الارض . فقدا اكثر من نصف المواطنين يملكون شتيتاً من قطع الارض النائية عن منزلهم الحقيقي . وكثيراً ما طرأت هذه التجزئة نفسها وهذا التشتت عينه على ممتلكات الدولة والجماعات والمعابد . فاستطاع الفلاح بسهولة ان يوسع ملكه الخاص باستثماره ، عن طريق التعاقد الحر ، قطعاً قريبة منه قد تبقى باثرة لولاه .

ولكنه ، على الرغم من عمله الجاهد ، لا يحقق الثروة فيها . وفي المناطق الجبلية يعيش بالتقتير حطّابون وفحامون تعودوا شظف العيش او رعاة ينتقلون بقطعانهم حيث الكلا والزرع . فالمرج الجيدة نادرة جداً . ولا تعطي الارض الزراعية نفسها سوى انتاج متدن من الحبوب بسبب جفاف وحر الصيف الباكرين وفقدان رؤوس الاموال والنسق المطرد الواحد . وتحول الأدوات البدائية دون الفلاحة العميقة . وتفرض الحاجة الى الاسمدة ، بسبب ندرة

المواشي والتقنية المتأخرة، ترك الأرض بوراً سنة بعد سنة وحرثة الحقول المزروعة ثلاث مرات في السنة ، ربيعاً وصيفاً وخريفاً ، تأميناً لاستمرار الرطوبة فيها . وليس بمكنة الفلاح عملياً ان يبيع الحبوب ولا يوفر له فائضاً انتاجياً ، وبالتالي بعض المال ، سوى الاشجار المثمرة كالتين والكرمة والزيتون . فكان عمل جدوده وحرمانهم في هذه الحقول المشجرة ، بمثابة رؤوس اموال ينتفع هو بفائدتها السنوية . ولكن المال يعوزه لتحسينها ، او لتجديدها فقط ، اذا ما عبثت بها ايدي الغزاة . ولا مطعم عنده ، من جهة ثانية ، سوى تحصيل ما هو ضروري لحياته ولا يقبل بأي شكل باهمال زراعة الحبوب . لذلك فانه يتعنى كثيراً ، تعاونه عائلته التي تفرض عليه ظروف حياته بأن يقصرها على عدد محدود : بعض الاولاد وعبد او عبدان ، لانه يعجز عن استخدام واعالة عدد اكبر .

ولكنه بذلك سيد نفسه ، يشعر ، في استقلاله ، باعتزاز حلال . ويضيف النظام الديموقراطي الى هذا الاعتزاز جبوراً يولده فيه تمكنه من الاسهام في ادارة الشؤون العامة كعضو في الجمعية الشعبية وكمحلف او قاض صغير . وتغريه هذه الوظائف بنوع خاص ، عملياً ، حين تحول سنه دون قيامه بالاعمال الزراعية الشاقة ، فلا يرى ضيراً إذ ذاك ، في ان يسير قبل الفجر ، يقوده احد الاولاد على ضوء فانوس خافت ، في الطرقات الموحلة المؤدية الى المدينة حيث تبدأ جلسات الجمعية والمحكمة في موعد مبكر . اما في شيخوخته فيؤثر العمل في املاكه على ضياع يومه سعياً وراء ربح بعض الدراهم . ولكنه ، حتى في الانظمة الاخرى التي تقصيه عن الحياة السياسية بسبب ضعة نسبه او هزال ثروته ، او في تلك التي تخضعه عاداتها للنفوذ المطلق الذي ينعم به اشراف واثرياء الجوار ، يعمل على هواه ، لا يتلقى الاوامر من احد ، في الارض الموروثة عن آبائه والمعدّة لابنه . وفي زمن الحرب ، يرتدي دون تملل ، في سبيل الدفاع عن ذويه وبيته واشجاره وحصائده ، عدّة الهوبليت التي هي إرث والديّ أيضاً . ولكنه يتوق بالسليقة الى السلم الذي يتيح له حياة تتميز بالبساطة والقناعة يرضى منها بأكل شعيره المسلوق وبصل حديقته وعسل قفرانه وتين وزيتون بستانه ، مقصراً طهي الطعام على ايام الاعياد فقط التي يتناول فيها ، مع بعض الاصدقاء من جيرانه ، وجبة تستلزم لحم الخنزير وقارورة نبيذ من كرومه ، متبادلاً معهم احاديث غالباً ما تسيطر عليها الساحة . ورغباته المتواضعة واقراحه المبتذلة وشقاوته هي التي احاطها أرسطوفانوس بشعر فيه نضارة ندى الصباح وحسيس خفقان أجنحة النحل الطائر .

٢ - المقايضات

لم توفر هذه الحياة الريفية للاقتصاد اليوناني سوى قاعدة ضيقة جداً ،
الاقتصاد المركب :
حتى عندما امنّت شرّ ويلات الحروب والاضطرابات الاهلية ، في انها
شراء وبيع
ايام العهد الكلاسيكي . وعلى الرغم من قناعة السكان لم تستطع اليونان
تأمين غذائهم بمواردها فقط ، باستثناء بعض المناطق التي اغدقت الطبيعة عليها العطاء ، او تلك

التي ضوّلت فيها كثافة السكان . فتوجب عليها في المناطق الاخرى استيراد المواد الغذائية من صقليا وإيطاليا الجنوبية ومصر وشواطئ البحر الاسود الجنوبية . ولكنها اضطرت لأب تصدّر محاصيلها الى هذه البلدان كي تسد اثنان المواد المستوردة منها . فباعتها النيذ والزيت ، وهما الانتاجان الوحيدان اللذان يفيضان عن استهلاكها . وباعتها مصنوعاتا ايضا ، وهي ضرورات اساسية فرضها عليها « الفقر ، شقيقتها الرضيع » كما قال هيرودوتس ، وأدت الى نمو اقتصاد كثير التعقيد .

فازدياد النشاط الصناعي يستلزم الحاجة الى الخامات التي لا يسدها غير الاستيراد . والبيع والشراء من الخارج يقتضيان اسطولا تجاريا لا تكفي موارد اليونان القديمة ، اذا ما بلغ اهمية معينة ، لأن تؤمن المواد الضرورية لبنائه وصيانتته . ولكن هذا الاسطول نفسه مورد ارباح لأنه يتيح لقادة المراكب القيام بدور الوسطاء والسياسة في جميع انحاء حوض البحر المتوسط . ومن شأن حركة التجارة المتزايدة اخيراً ان تضاعف عمليات الصرافة ونقل الاموال وان تدفع الى الامام ، بالتالي ، بتجارة النقد التي تتحول الى نشاط مصرفي .

لم يتغلب هذا الاقتصاد المتنوع على الاقتصاد الريفي الا في نقاط المراكز الاقتصادية الكبرى :
أثينا
معدودة من البلدان اليونانية ، أي في بعض المدن وبعض المرافئ القائمة في مواقع جغرافية ممتازة والآلهة بسكان عالي الهمّة او كثيري التعرض للفاقة ساعدتهم أيضاً ظروف سياسية مؤاتية .

وتبرز في هذا العهد ، من جهة ثانية ، نزعة واضحة الى التجمع والمركزية . ففي صقليا تسير سيراكوزا قدماً في تفوقها السابق الراهن . وفي مناسبات عدة ، يتيح لها نفوذها وقواها العسكرية ، التي امنّت لها الانتصارات على قرطاجة ، انشاء امبراطورية ابعد من ان تكون سياسية فحسب ، فتدمر او تخضع مدنا اخرى او تستفيد على الاقل من تدمير الغير لها . وتساعد الهجرة ، الطوعية تارة والقسرية اخرى ، التي يسهلها او يفرضها المستبدون الذين يوزعون المواطنين بسخاء ، مستهدفين القضاء على تلاحم رعاياهم المعنوي ، على ازدياد عدد السكان ازدياداً عظيماً . وفي إيطاليا الجنوبية ، نرى طارنتا ، وان لم تعرف مثل هذا النصيب ، تبرز هي أيضاً بروزاً نهائياً خدمها فيه تأخر جيرانها الذين يقرض بعضهم بعضاً او لا يتمكنون مثلها من مقاومة ضغط الايطاليين . وفي اليونان نفسها تصبح مراكز ازدهار الحياة الاقتصادية اقل عدداً من ذي قبل . فلقسقط خلقيس وايرتريا وايجينا او تزول امام نمو اثينا المطرد . وتعيش المدن اليونانية الآسيوية في ضيق ، حتى بعد ان انتهت الاعمال الحربية مع الامبراطورية الفارسية بتحريرها وبعد ان فتحت آسيا اسواقها لتجارها . اما كورنثوس فتحافظ على مكانتها ، بفضل موقعها الممتاز للتجارة مع صقليا وإيطاليا ، وبفضل توسطها بين بحر ايجه والبحر الغربي لاسيما وان الدوران حول البلوبونيز يخيف الملاحين . ولكن هذا التجمع كان جليل الفائدة لاثينا بنوع خاص

اذ انها تتقدم تقدماً مطرداً يكاد لا يتوقف حتى حملة الاسكندر وتلعب بلا مرء دور العاصمة الاقتصادية للعالم الايجي .

يعود الفضل في هذا التقدم الى قوتها والسيادة البحرية التي يُعترف بها او تُفرض فرضاً غداة الحرب الميدانية الثانية ، والى « الامبراطورية » التي تسيطر عليها حتى هزيمتها في السنة ٤٠٥ ، و « الاتحاد » الذي اسسته في السنة ٣٧٧ والذي يدوم رسمياً حتى السنة ٣٣٨ . فهي تستحلب من حلفائها او رعاياها ، باسم « جزية » او « مساهمة » ، امدادات نقدية تغذي خزائنها بصورة مباشرة . تجمع الملاحين لمراكبها في كافة المدن البحرية الخاضعة لها وتحصل فيها على تسهيلات تجارية وامتيازات حقوقية لمواطنيها . ويساعد النفوذ الذي تنعم به على ذبوع طرائقها الفنية وبالتالي منتجاتها الصناعية ، فيثبت الاسطول الحربي منذ ذلك الحين انه اداة دعاوة نافذة . تساند قوتها السياسية نفوذ قوتها الاقتصادية ، وتعاضد قوتها الاقتصادية بالمقابلة نفوذ قوتها السياسية . فأثينا مدينة لازدهارها بطاقات مادية وبشرية تتيح لها بناء وصيانة اسطول هو في الاساس من قوتها ، كما ان مكانتها التجارية تضعها في مركز تستطيع معه القيام بالضغط وقطع بعض موارد التموين عن اعدائها ، وحتى فرض حصار شديد حولهم . فيتضح اذن ان هنالك ، في كلا الاتجاهين ، صلة وثيقة بين السياسة والاقتصاد .

ان اثينا التي تستورد المواد الغذائية والخامات على نطاق واسع تصدر نبيذ وزيت حقول الأتيك ومنتجاتها الصناعية ولا سيما خزفياتها التي تكتشف اليوم كسراً هائلياً على الشواطىء الممتدة من غاليليه حتى روسيا الجنوبية . ويغدو مرفأ البيره بفضل اسطوله التجاري الذي تحميها قطعاتها البحرية ، بشهادة ايزوقراط ، « سوقاً تتوسط اليونان ... يسهل الحصول فيها ، بسبب وفرة البضائع ، على المصنوعات التي لا يمكن وجودها في غير مكان الا بصعوبة وبكميات قليلة جداً » . واذا ما أردنا الاقتصار على النواحي الرئيسية ، نقول ان اثينا تصدر المسكوكات اخيراً . فالفضة المستخرجة من مناجم ال « لوريون » تسمح لها بان تضرب ، باعداد كبيرة وبيع قيم ، نقوداً مرتفعة العيار ودقيقة الوزن تعرف الرواج في كل مكان وتطمع هي ، اقله في امبراطوريتها خلال القرن الخامس ، بان تحتكر بواسطتها النقد الدولي المتداول .

وهكذا تكون ، في شبه الجزيرة الاتيكية هذه ، التي لم تحبها الطبيعة بأية مزية طبيعية ، بفضل تضافر ظروف بشرية مؤاتية جداً ، مركز اقتصادي يتصف بتنوع ونشاط وازدهار لم يعرفها مركز من قبل . ولكن هذا المركز يتصف بالهشاشة ايضاً لانه تحت رحمة كارثة بحرية — ايغوسبوتامي في السنة ٤٠٥ — او رقابة يفرضا عدو برّي — الملك المقدوني فيما بعد — على طريق المضائق والبحر الاسود التي لا غنى عن سلامتها وحريتها لتموين سكان المدن .

٣ — المجتمعات المدنية

لم يؤد اقتصاد المقايضات اذن ، بفضل انحصاره في مراكز معينة ، الى الاقلال من اهمية دور

الحياة الريفية في مجموع أنحاء اليونان . ولم تنشط الحياة المدنية الا في بعض الامكنة فقط دون غيرها .

فالمدن اكثر من ان تعد في اليونان ولكنها وضعت في اكثر الاحيان . وهي تؤمن لسكان الارياف ، في ظروف الغزو ، ملجأ اسوارها وقلعتها . أما في ايام السلم فلا تنشط الحركة فيها الا في ايام الاسواق والجمعيات والاعياد الدينية . واذا ما حدث ان كان المعبد الرئيسي خارج المدينة ، تتعرض المدينة لان تهجر عملياً . وهذا ما جرى بالفعل لـ « ايليس » التي اسست في اوائل القرن الخامس والتي ارتبطت بها اولمبيا اولاً . ولكنها لم تستطع منافسة نفوذها لدى مواطنيها انفسهم . فكان في اولمبيا في اواخر الالف الثالث ، كما يقول « بوليب » « عائلات على كفاف من الثروة لم يذهب احد من اعضائها ، منذ جيلين او ثلاثة ، لحضور جمعية في المدينة » ، لأن العدل تقرر اجرائه في الارياف . فيمكننا ان نستخلص ، من هذه الحالة النادرة جداً ، الحياة الهادئة ، والخدمة غالباً ، في غالبية المدن الصغيرة .

أما في المدن الكبيرة فنعرف ، على الاخص ، طرازين حياتيين هما طراز سبارطة وطراز اثينا .

ان سبارطة التي ادهشت الاقدمين حتى الاعجاب قد حيرتهم في الوقت نفسه بمظهرها الحقيير . اجل قامت فيها بعض الابنية ، التي شاهدها زائرون قليلاً جداً على كل حال ؛ لانها منذ القرن الرابع لم تعد تلك المدينة المضيافة التي كانت . ولكنها ما كانت لتتجاوب مع الفكرة التي كوَّنها الاغريق عن المدينة . فلم تتوسطها القلعة ، ولم تحط بها الاسوار الا في تاريخ متأخر ، بل كانت اشبه بمجموعة قرى كبيرة .

يمارس مواطنوها ، منذ سن السابعة حتى سن الثلاثين ، التدريب والجندي ، ومنذ الثلاثين حتى الستين ، ينتمون الى قوة الاحتياط الدائمة التأهب المستعدة ، في النهار نفسه ، لتلبية نداء التعبئة ، والمفروض على افرادها ايضاً ، الا باذن استثنائي ، ان يتناولوا وجبة العشاء مع اولئك الذين سيكونون رفاقهم في الخيم اثناء الحملات العسكرية . يحظر عليهم كل سعي وراء الكسب ، وكل عمل غير التمرين الرياضي والعسكري . لا تضرب الدولة سوى نقود حديدية ، ويجب الا يقتني السبارطي الحقيقي معادن ثمينة . فالفريضة العينية المتوجبة على الفدائيين في املاكها تكفي نذلراً لاعالته وإعالة أسرته دون ان يقوم بأي عمل .

كان من نتيجة هذا النظام العسكري والاجتماعي الصارم ان يضاعف ، الى جانب فئة « المتساوين » ودونها ، اي الى جانب المواطنين الكاملين ، فئات اخرى متدنية : الفدائيون في الارياف ، و « المهنيون » في اطراف الارض اللاكيديمونية الذين يجتمعون في مدن صغيرة ويتعاطون الزراعة الحرة والصناعة اليدوية والتجارة ، و « المتدون » في سبارطة نفسها ، اي المواطنون المنحطون والانغال والمحروون وغيرهم كثيرون ممن يتوقون الى مثل اعلى هو العودة او الانضمام الى طبقة المتساوين . ولكن هذه العودة وهذا الانضمام ما كانا ليمنحها الا بقرار من

السلطات ، على ان يمتلك المستفيد منها ارضاً منتقلة اليه بالوراثة او بالزواج من وريثة غنية ، لان الفقر الذي يفرض العمل عقبة تتنافى مع وجوده في عداد المحظيين .

ان تعداد نتائج مثل هذا النظام ، الموضوع ، وفاقاً لمنطق لا يخلو من الخطأ ، بغية توفير جنود على مستوى عال من التدريب ، لسبارطة ، يؤدي بنا الى إطالة لا موجب لها . فيكفي ان نشير الى المظاهر الشاذة في الحياة العائلية : العزوبة المتكاثرة وإعالة الاخوة المحرومين من الاملاك والفدائيين في بيت البكر ، والتحديد الطوعي للنسل الذي يسبب ، مع النقصان في الرجال ، هبوط سبارطة النهائي بعيد انتصارها في حرب البلوونيز ، واقدام الدولة على انتزاع الفتيان من والديهم واشرافها اشرفاً كلياً على تربيتهن ، والسلطة التي تمارسها المرأة في عائلة غالباً ما يكون ربها غائباً وتؤمن هي إعالتها بثروتها او بعملها .

لنصف الى هذه المظاهر وتيرة الحياة اليومية الواحدة . فهي توفر ، في الايام العادية ، ملذات محدودة في نادي الرياضة وحقل المناورات وغرفة الاكل . ولا يدخل عليها التغيير بصورة عارضة الاربعة الفضة التي تحسن حصيلتها ، عند المساء ، اصناف وجبة العشاء . ويدخل عليها التغيير ، بنوع خاص في مواعيد معينة ، الاعياد الدينية التي يحتفل بها بكل دقة وفاقاً لطقوس قديمة غريبة تنظم تعاقب قيام الجوقات بتوزيع مقاطع شعر قديم . فبسبب جمودها في تقاليد تنبأها هي بالابقاء عليها ، وبانقطاعها التام تقريباً عن العالم الخارجي الذي لا تربطها به سوى طرقات سيئة او مرفأ « جيثيون » الصغير في خليج بعيد عمن بحر ايجه ، وبتهجير السفر الى الخارج على مواطنيها والاقامة فيها على الغرباء ، لم تستطع سبارطة الاسهام بشيء في وثبة الحضارة اليونانية .

فستان ما بينها وبين أثينا .

هناك منطقة واحدة في أرياف الأتيك عرفت حياة ريفية تختلف مناخها وعبيد الـ « لوريون » عن تلك التي وصفناها سابقاً ، هي جبل الـ « لوريون » جنوبي شبه الجزيرة . فقد ادى استثمار مناخ الرصاص الممزوج بالفضة ، هنسا ، الى تجمع بشري تباينت اهميته وفاقاً لنشاط الادارة او اهمالها ولوفرة العروق المعدنية المكتشفة او نضوبها .

كانت الدولة الاثينية ، من حيث انها تملك الامتيازات ، تؤجرها للمستثمرين محتفظة لنفسها بالفضة التي تجمع بعد معالجة المعدن الخام . وكانت تكرر لهذا الاستثمار اموالاً هامة يؤمن المستأجرون بواسطتها حفر الدهاليز ، واثان المواد وأجور اليد العاملة المتشلة بالعبيد . وقد حدث ، توصلاً لهذه الغاية ، أن اسست شركات احياناً . بيد ان بعض الرأسماليين ، من امثال نيكياس الذي لعب دوراً سياسياً كبيراً في أثينا ، ابان حرب البلوونيز ، فضلوا تأجير الملتزمين عبيداً يعملون في المناجم لقاء اجر يومي . اما كسينوفون ، فقد اقترح في كتابه حول « المداخيل » الاحتفاظ بهذا الاستثمار للدولة التي كان بإمكانها ، بفعل قدرتها على تخصيص الاموال السكافية

لشراء المزيد من العبيد ، ان تضمن ، لا مجموع نفقات تأجيرهم للتلزيمي المناجم فحسب ، بل المداخل المتزايدة بفعل توسع الاستثمار الذي تفضي إليه زيادة اليد العاملة . ولكن هذا المشروع الغريب لم يتحقق قط .

يمكننا ان نتصور ، والحالة هذه ، مصير هؤلاء العبيد العاملين في المناجم باشراف ملتزم يسعى وراء الكسب السريع ، ولا يهتم لاستبقاء طاقتهم على العمل ، ويدفع لهم أجوراً لا شك في انه يقدّرها بدقة حتى لا يتأخر استهلاكها . وكانوا يعملون بأدوات بدائية في دهايز ضيقة تنيرها مصابيح زيتية مدخنة . وكانوا يجمعون ، خارج المنجم ، في « معسكرات » حقيرة ، دون عائلاتهم ، طمعاً في تجنب نفقات تغذية اضافية ، تحيط بهم طبيعة كثيفة قضت الغازات الكبريتية المتصاعدة من المعدن المذوب على كل اثر للحياة النباتية فيها . وقد استهوى الهرب هؤلاء الاشقياء : فخلال حرب البلوونيز ، استجابة لنداء الاعداء الذين احتلوا قلعة في الأتيك في سيرهم للقضاء على أثينا ، حطّم عثمرون ألفاً منهم قيود إقامتهم الجبرية وانتشروا في الارياض التي ألقوا الرعب فيها . وفي هذه المناجم ايضاً انفجرت ، بعد ذلك زمن ، ثورات عمالية كانت مقدمة لتلك التي ستواجهها روما في صقليا واطاليا الجنوبية . لذلك فإن منطقة اللوريون وحدها في اليونان الكلاسيكية ، تتيح لنا تحليل ظروف اجتماعية شبيهة بظروف بعض المناطق الصناعية الكبرى في عالمنا المعاصر .

ان العبيد في المدينة ، اذا ما وجد العبيد ، لا يجمعون باعداد كبيرة في مكان واحد ، بل هم ، على العموم ، عبيد منزليون مشتتون ههنا وهناك . فالبيت الذي يخدمه عشرون عبداً تقريباً ، يخرج بمعظمته عن النطاق العادي . وفي فقدان العبيد من البيوت ، دليل على الفاقة القصوى . ولكن البيت العادي ، لا يزيد عدد العبيد فيه عن الثلاثة او الاربعة ، وهم نساء بنوع خاص . ويمتزج هؤلاء العبيد بالحياة العائلية ولا يعاملون معاملة سيئة . ويحدّد وجود الزوجة شبه الدائم في البيت من بعض تجاوزات الزوج . وليس من النادر ان ينشأ تعلق متبادل بين المرضعة او « المربي » وبين الولد الذي رافقه هذا المربي في زهاته وعني بتربيته وتعليمه . وقد تسوّهل في عقد الزواج في البيت الواحد بين عبد وعبدة تربي ابنها الذي لن يعرف الحرية ، على كل حال ، شأنه في ذلك شأن والديه .

استخدمت الصناعة والصناعة اليدوية الأرقاء ايضاً . ولكن اكبر معمل وصلت إلينا . أخباره ، وهو مصنع اسلحة في ايام الحرب ، لم يتجاوز العبيد فيه مائة وعشرين عدداً . وليس من تجمع صناعي حقيقي في اي مكان . فققدان الآلة لا يساعد على ذلك . واليد العاملة الكثيرة تستوجب رؤوس اموال ضخمة . فمثال المعمل الذي تصوره لنا الرسوم على الآنية هو معمل الصناعي المهني ، كالحداد والسبّاك والخزّاف ، الذي يعمل شخصياً مع بعض العبيد . فقيم

الحياة اليومية والعمل المشترك بين هؤلاء وبين سدهم علائق لا تخلو من عاطفة السائبة .

وقد يذهب بعض الاسياد الى ابعد من ذلك ، مستوحين في ذلك خرصهم على مصلحتهم الحقيقية . فبعد ان يدركوا ان هذا او ذاك من عبيدهم سيعمل باندفاع اذا ما كان حراً عملياً وأفاد من عمله إفادة شخصية ، يأذنون له ان يمارس ، لحسابه الخاص ، مهنة صغيرة او تجارة صغيرة او يؤسس عائلة ويعيش « على حدة » . غير انه يتوجب على هؤلاء المحظيين ، الكثيرين في مدينة ناشطة كأثينا ، ان يدفعوا فريضة يومية لسيدهم . فيعملون أنفسهم بمعزل عنه ويجمعون ثروة صغيرة بما يفيض عن كسبهم .

في مثل هذه الظروف ، يصبح من الطبيعي ان يتدنى الحاجز الراهن القائم بين الفقراء من الرجال الاحرار وبين العبيد . ولا يميز هؤلاء سوى شعر قصير . وهم لا يرتدون اي لباس خاص ، وكثيرون منهم اغريق أقحاح لم يفرض عليهم العبودية سوى ملابس الجروب . وأخذ عليهم بعض المراقبين الشكسين صراحتهم الكلامية الرقعة . وقد حماهم القانون من شراسة الغير ولم يفته ان يحدد بخمسين جلدة العقوبات الجسدية التي يستطيع القضاة أنفسهم ان يحكموها بها في حالة ارتكاب الجرم . واذا ما كانوا محققين في التشكي من قساوة سيدهم ، جاز لهم اللجوء الى بعض المعابد وطلب عرضهم للبيع ؛ واذا ما اقتنع الكاهن بحقيقة شكواهم ، يرغم السيد ، عملياً ، على القبول بهذا البيع ويمدد اجل وفادة الشاكي . فأثينا في هذا المجال ، قد سبقت المدن اليونانية الاخرى اسواطاً بعيدة : الاخلاق فيها اكثر عدوية والقانون نفسه أخذ يتأثر بالاخلاق . وعلى الرغم من ذلك فان التحرير فيها لا يزال امراً نادراً ، كما لا نزال استثنائية نجاحات بعض العبيد المتميزين بنشاطهم وذكائهم الذين يتوصلون الى جمع ثروات حقيقية في التجارة والاعمال المصرفية ويحصلون لا على الحرية من اسيادهم فحسب ، بل على صفة المواطن من الدولة ايضاً التي يؤدون لها الخدمات المالية .

يدخل في عداد السكان الاحرار ، من الناحية القانونية فئتان من الأشخاص :

الاجانب المقيمين

الاجانب المقيمين والمواطنون .

يقيم الاولون في مساكن خاصة بهم . يوجد منهم ، بهذا الاسم او بغيره ، في كافة المدن اليونانية تقريباً ، باستثناء سبارطة التي تتحزز منهم ، وباستثناء بعض المدن المتأخرة جداً ايضاً التي تعتمد على الاقتصاد الريفي دون غيره . ولكن عددهم لم يتجاوز في اي مكان ، بصورة مطلقة او نسبية ، عددهم في اثينا حيث يوجد منهم واحد مقابل مواطنين اثنين او اكثر من واحد ايضاً اذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى الرجال . ومرد ذلك ان الشهرة الفنية والفكرية التي تنعم بها المدينة ، بالإضافة الى نشاطها الاقتصادي ، تستهوي اولئك الذين يطلبون الاستزادة من المعرفة والشهرة ، ورجال الاعمال المقدامين ، والمهنيين النشيطين الذين يسعون وراء كسب عيشهم .

وهم يلقون في المدينة ضيافة عطوفة ، دون ان يشعروا بالضعة بفعل تمييز مهني . واذا ما استثنينا حرمانهم من الحقوق السياسية والملكية العقارية والرسم السنوي الضئيل الذي يدفعونه ، فلا شيء مما تبقى يفرقهم عن المواطنين ، اذ انهم يؤدون الواجبات العسكرية والمالية نفسها ويتمتعون بتسهيلات كبيرة في ممارسة عباداتهم الخاصة ويحضرون ، الى ذلك ، الاحتفال بالاعياد الدينية الرسمية ، ويستفيدون اخيراً من حماية القانون لاشخاصهم وممتلكاتهم .

يمارسون مهناً متنوعة جداً ، جرة وصناعية وتجارية . فليس تقريباً من فنان او اديب او عالم يوناني غير اثيني ، الا وقضى في اثينا شطراً هاماً من حياته قصيراً او طويلاً . وبين اشهر خطباء القرن الرابع ، الذين حافظ النحويون الاسكندريون على مؤلفاتهم ، لانها خلقة بان تدون في مجموعة « خطباء الأتيك » ، كثيرون من شرفوا بلاغة المحاماة في اثينا ، كـ « ليزياس » و « ايزيا » ، كانوا اجانب مقيمين . وكانوا اجانب مقيمين باكثريتهم ايضاً ، لا سيما في القرن الرابع ، اولئك الذين مارسوا المهن الصغيرة والتجارة التفصيلية (المرفق) واولئك الذين اداروا مشاريع اعظم اهمية ، بحرية وحتى تجارية . فمالك مصنع الاسلحة والمائة وعشرين عبداً الذين عملوا فيه كان سيراكوزياً ، وبالتحديد والد الخطيب ليزياس . وهكذا فان مجد وازدهار اثينا مدينان ، الى حد بعيد ، لعمل الاجانب المقيمين .

انصراف المواطنين
عن النشاط الاقتصادي

أجل ان في هذا الوضع لمغايرة للرأي العام إذ انه ، في الحركة الاقتصادية التي تسهم هذا الاسهام الكبير في ثروة وقوة أثينا ، يولي الاجانب اهمية لا تتناسب وعددهم . ولكن له ما يبرره ، دون ريب ، تفرد المواطنين في حقول اخرى . فهم اولاً ينعمون وحدهم بحق الملكية العقارية الذي يقصر عليهم استثمار الارض وما تحت الارض ، الا اذا حصل المواطن الاجنبي على مثل هذا الحق في ظروف نادرة جداً . وينعمون وحدهم ، ثانياً وخصوصاً ، بالحقوق السياسية ، وبالتالي بالمكسب المتواضع الكافي لمعيشتهم الذي توفره نجاحات الديمقراطية لمن يمارس هذه الحقوق .

منذ القرن الخامس ، توصل بريكلليس الى اقرار هذا التعويض ، الذي بتأثير التعويض اليومي تتولاه الدولة ، للقضاة واعضاء المجلس ومختلفي المحاكم الشعبية والمجندين . وفي اوائل القرن الرابع شمل هذا النظام اولئك الذين يشتركون في جلسات جمعية الشعب . وكان الهدف من ذلك السماح للمواطنين الفقراء ان يكرسوا وقتهم لخدمة المدينة وان يشتركوا في الحياة العامة شأن المواطنين الذين تجنبهم موارد المضمونة وسواس الميزانية العائلية اليومي . غير ان هذا التعويض قد بقي طفيفاً على الدوام ، دون اجر العامل الممتاز .

كان المهم ، على كل حال ، لا ان يسدّ وحده حاجات حياة متنوعة ، بل ان يساعد على ذلك كدخل اضافي . ومن حيث ان عدد المستفيدين منه كان مرتفعاً بفعل زيادة القضاة والمحاكم ، اذ كان يعين ستة آلاف محلف سنوياً - افضى هذا التعويض تدريجياً الى إنشاء المواطنين عن

الاعمال المهنية . فقد بدا لهم الاسهام في تسيير أمور الدولة أكثر بساطة واستالة من العمل اليدوي . وقد هاجم خصوم النظام بعنف هذه الطريقة التي رأوا فيها ، على حق ، أحد الاسس الرئيسية للديموقراطية . ولكن الغاية المقصودة من انتقاداتهم يجب ألا تحفي إحدى النتائج المباشرة لتعميم التعويضات : نفوذ الأجانب المقيمين المتزايد في صناعة أثينا وتجارتها .

وبفعل استمرار الاعتبارات العديدة ليس من سؤك في ان عوامل أخرى قد فعلت فعلها في الموضوع نفسه ، لا سيما استمرار الاعتبارات القديمة التي

لا تستسيغ عملاً يُنفذ لخدمة وبأمر أحد الزن ، او بانتظار زبون ممكن فقط . فقد جاء في التآبين الذي ينسبه توسيديد الى بريكليس : « لا غضاضة في ان يعترف الانسان بفقره ، ولكن العيب كل العيب في التقاعس عن تجنب الفقر بواسطة العمل » . وان في هذا القول لاكثر من صدق لاقوال هيزود الذي عبر في « الاعمال والايام » عن رأي مماثل . افليس الهدف الحقيقي ، في هذه الحالة وتلك ، تقويم رأي عام لا يشجع العمل؟ وفي الواقع ، اذا ما تقدم لنا ، بصدد اثينا الكلاسيكية ، ان القانون يعاقب من يأخذ على غيره مهنته ، فمن الأمور الثابتة ان ديموستين انما يستهدف الخط من شأن خصمه ، اسشين ، حين ينوه بان والديه قد تعاطوا منها وضعة . فالتقاليد القديمة التي لا تزال تسيّر الاخلاق تثبت اذن انها اقوى من الارادة الرسمية التي تعبر عنها خطب الحكام والشرايع ، كما تثبت ايضاً ان التطور ابطأ من هذه الارادة بالذات .

ان شؤوننا كثيرة تصرف اغريق ذاك العهد وستصرف اغريق العهد اللاحق والرومان ايضاً اعن ان يستخدموا في اختراع الآلات وصناعتها ، مهارتهم العظيمة ومعارفهم العلمية التي كان من شأنها ، في أكثر من حالة ، ان تحقق هذا الغرض بسهولة . كثيراً ما يقتل المؤرخون هذا الاهمال بوجود الاستعباد الذي يؤمن بقليل من المال ، آلات بشرية وافرة العدد . ويعلمونه ايضاً بفقدان اسواق البيع الواسعة التي كان من شأنها ، لو توفرت ، ان تزيد الطلب وتحمل على زيادة الانتاج . غير انه يجب علينا ، بالاضافة الى ذلك ، ان نفكر بالمثل الانساني الاعلى الموروث عن العصور السابقة الذي يحل ، في الاساس من استقلال الفرد الحقيقي ، خيار العمل الحر لمنفعته الشخصية دون اهتمام للمساومة او البحث عن الزن .

لذلك نرى خصوم السفستيين يثور ثائرم عندما يرونهم يطلبون اجراً من تلامذتهم ، اذ ان تعاطي النشاط المأجور من الأمور المعيبة . ولا ينجو من هذا الانتقاد سوى المالك الذي يشرف على استثمار ممتلكاته الخاصة . وفي المدينة يستسلم الغني والفقير للبطالة غير ساعين على العموم وراء استثمار ثروتها . فتستشري عدوى مثلها ، لا سيما وان المواطنين اقلية في طبقات العمال في المدينة ، فيسيطر الأجانب المقيمون في الاوساط التجارية ، اعني بهم ذوي اليسار والطبقة العالية . ولن يلعب مالكو المصانع المتوسطة دور الادارة في السياسة الاثينية الا بعد موت بريكليس والاضطراب الذي خلقته حرب البلوبونيز والذي جسر الى داخل اسوار المدينة الريفيين الذين هددتهم الغزو وافقرهم . ولعل أفضل مثل للذين لعبوا هذا الدور هو « كليون » ،

ولكن السهام الساخرة التي وجهها اليه ارسطوفانوس تعبر عن احتقار الاوليفارشين وعدم الثقة بالرفيقيين . وفي الواقع فان الطبقة الاجتماعية التي مثلها كليون ما لبثت ان غمرها النسيان في القرن الرابع . اما ديوستين ، وهو ابن صناعي مشهور بملك معملين ، فكان الفضل في برونزه للحماء . شان اكثر الرجال السياسيين في عهده . فقد مضى زمن طبقة ذوي اليسار من رجال الاعمال . وكان سربس الزوال لان نسبة المواطنين في هذه الطبقة المتوسطة قد غدت ضعيفة جداً .

كان « كاليباس » ، في عهد بريكيليس ، أوفر الاثنيين ثروة : فقد بلغت ثروته ، الناشئة عن استثمار المناجم بنوع خاص ، مائتي مئتا من الفضة (اي ما يوازي ١٠,٢٠٠,٠٠٠ فربك في السنة ١٩١٤) . وفي عهد لاحق اعتبر نيقياس غنياً جداً من حيث ان دخله السنوي بلغ احد عشر مئتا تقريباً بفضل العبيد الالف الذين كان يؤجرهم للمزني اللوريون . فالاول والثاني يهتمان كلاهما ، اذن ، للصناعة المنجمية ، اي للناحية الاقتصادية غير الزراعية الوحيدة المحرمة على سواد الاجانب المقيمين . وبعد هزائم حرب البلوبونيز تدنى الحد الاقصى للثروات . ففي القرن الرابع لا يملك الاثينيون الثلاثة او الاربعة الذين اشتهروا بالثروة اكثر من خمسين مئتا . وقد اكد ديوستين ، ، بضع سنوات قبيل السنة ٣٥٠ ، « ان في اثينا ثروات توازي او تكاد توازي مجموع ثروات كافة المدن الاخرى » . اجل يجب ان لا ينظر الى هذا التأكيد كحقيقة راهنة . ولكنه اذا كان له ما يبرره ، فلا يمكن ان يصح ذلك الا بالنظر لمجموع سكان المدينة الذين يعيش قسم كبير منهم في البحبوحة واليسار الكريم . ويكفي فقر الطبقات الاجتماعية المتدنية ، التي تعيش يومها بالكفاف ، لان يوجد تبايناً ثابتاً بينها وبين الاغنياء . ولكن تكديس الثروات لم يتجاوز حداً معقولا .

كورنثوس ، استناداً لما يؤكد هيرودوتس ، - وهذا يعني اننا امام حالة شاذة - فان الصناعة والتجارة اقل اعتباراً في هذه المدن منها في اثينا .

ستنتج من ذلك ان الثروات الخاصة الطائلة لم تعرف قط في جميع انحاء العالم اليوناني الكلاسيكي . فهي ستبقى لزمن طويل وقفاً على الشرق . ولم يصعب على هيرودوتس ان يدهش مواطنيه بسرده امامهم اريحية ذلك الليدي الذي اعترف لكسر كسيس ، في السنة ٤٨١ ، ان ثروته السقدية ، دون عقاراته وعبيده ، تبلغ الفي مناً من الفضة وقرابة اربعة ملايين قطعة نقود ذهبية اي ما يساوي مجموعه مائة مليون فرنك في السنة ١٩١٤ . فعند تفكيرهم بهذه الكنوز الاسطورية ، وعند رؤيتهم الملوك والمرازية الفرس يدفعون الاجور المرتفعة للمرتزقة الذين يجندونهم ، وعند سماعهم روايات الرحالة عن عظمة البلاطات والمدن ، ينظر الاغريق الى الشرق حينئذ نظرتهم الى بلاد تفيض بالذهب . وقد اقتنع اكثر من واحد ، في القرن الرابع ، ان احتلال الشرق من شأنه ان يكون ، لمعالجة الآفات الاجتماعية والاقتصادية التي يتألمون منها ، دواء انجع من ثورة داخلية يدفع اليها الحسد ، محدودة في نتائجها بفعل ضالة الثروات النسبية التي ستتيح تقاسمها . وسيسهل هذا الشعور في تكوين الرأي العام الذي سيرافق الاسكندر في آسيا .

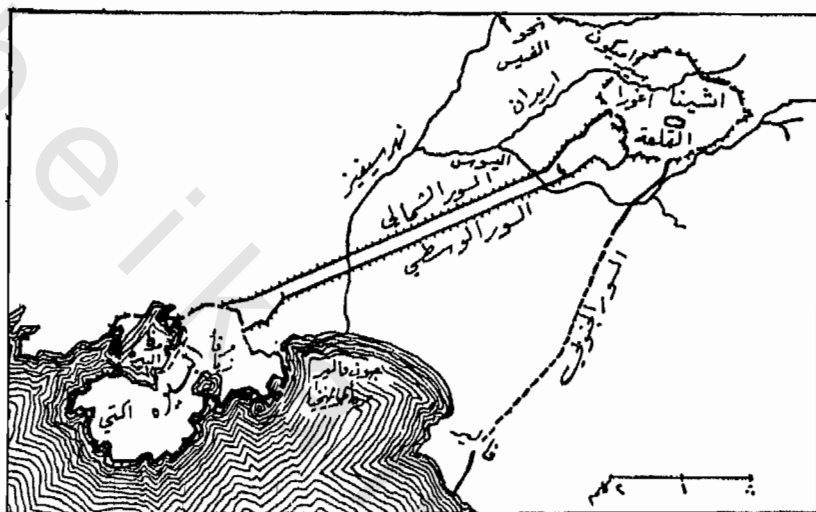
ولكن هذا الوضع يسمح ايضاً بادراك احدى الميزات الجوهرية في الحضارة اليونانية الكلاسيكية . فان تحقيقاتها التي تستلزم نفقات ضخمة تخضع لاشراف الجماعات دون الافراد . لذلك فان هذه التحقيقات انما تعبر عن حاجات ومقاصد الجماعات دون الافراد ايضاً .

٤ - المدن والحياة الخاصة

يتضح لنا والحالة هذه سبب الاعتدال العام في مظهر المدن ، اقله فيما يتعلق البيره وأثينا بحياة السكان الفردية والخاصة .

ان اكثر المدن سكانا واكبرها واغناها على الاطلاق هي اثينا التي تكملها ، على مسافة سبعة كيلومترات ، مدينة أتيكية اخرى هي البيره . تحيط بأثينا نفسها اسوار محصنة ؛ ويحتمي البيره سور آخر يحيط بشبه جزيرة لـ « اكي » ، وتربط بين المدينتين اخيراً وتصل أثينا بالبحر « الجدران الطويلة » او « السيقان » . ولم تخصص اية مدينة اخرى حينذاك مثل هذه العناية والجهود والموارد لايتاق الصلة بين مراكزها الحيوية والدفاع عنها . فقد توصلت أثينا بذلك الى تحسين مركزها البري والتحول الى جزيرة توحد بين اسطولها وجيشها توحيدها لم يعرف له مثيل في مكان آخر ، حرصاً منها على ضمان سلامتها . وفي الواقع فانها ، طيلة العهد الكلاسيكي ، لم تستسلم سوى مرة واحدة تحت ضغط الحصار والمجاعة بعد تدمير اسطولها . وقد اعطاها هذا التصميم الدفاعي الجبار ما اعوز اكثرية المدن الاخرى ، اعني الرحابة وراء الاسوار التي كثيراً ما تكون ضيقة بسبب الحاجة الى المال ، اي الرحابة الضرورية لراحة السكان . ولكن أثينا لم تحسن قط الانتفاع بهذه الرحابة .

أجل ، ليس المكان ما ينقص في البيرة . فالمدينة حديثة العهد ، بنيت في أواسط القرن الخامس ، وفقاً لمبادئ تنظيم المدن في ذاك العهد ، تنفيذاً لخطط هندسي . وهي تحيط بالمرفأ التجاري الوحيد في الأتليك وأحد المرافئ الحرة الثلاثة المعدة حول « ا كتي » والمجهزة بملاحيء للمراكب ودور الصناعة البحرية . وتجاور الارصفة ، حيث تفرغ المراكب الآتية من كافة المرافئ المتوسطة البضائع على انواعها ، السقائف والمستودعات ومكاتب الجمرک والصرافين



المدينة الثانية ، قبل تفتح نشاطها السياسي والاقتصادي والفكري . ولكنها على الرغم من ذلك لم تمتد الى حيث يبدو ان مصيرها قد دعاها للامتداد .

انها لا تطابق قط ، بسبب قدمها ، الفكرة التي نكوّنها عن مدينة كبيرة ، على الرغم من ضخامة القلعة وبعض المعابد او الابنية العامة المشيدة في المدينة المنخفضة . تمر فيها شوارع ضيقة يحظر بناء الشرفات البارزة فوقها ، لا بلاط عليها ولا ارضية على جوانبها ولا بواليع تحتها ، تتوسطها مجرات خزفية لتصريف المياه . ليس فيها سوى ينبوع ماء واحد سيّده المستبدون في القرن السادس ، ولكن فيها آباراً كثيرة تميل الى الاعتقاد بأن مياهها لم تكن نظيفة وصحية . الساحات العامة قليلة وأهمها الـ « أغورا » التي تظللها اشجار الصنّار . حول الأغورا تنتشر الاسواق : سوق مواد التغذية وبفروعها المختلفة لكل فئة من هذه المواد بما فيها لحم الحمار والسمك المجفف ؛ سوق الخيل والعبيد ؛ اسواق الخزفيات والألبسة والاحذية ، حيث يتعاطى الصناعي عمله في حانوته امام اعين الزبون ، كما هي الحال في الاسواق الشرقية في ايامنا .

يتكلّم كسينوفون عن عشرة آلاف مسكن في اوائل القرن الرابع . ان هذا المساكن الرّم لم يرتفع جداً بالنسبة لمساحة ضيقة ، وهناك حدائق في الضواحي التي تتسع خارج مداخل المدينة بين المدافن القائمة على جوانب الطرق ؛ ولكن المجتمع الراقي لا يقبل بالسكنى إلا داخل المدينة . ليس لهذه المساكن الوضيعة ، على العموم ، سوى جدران من الطين المجفف يسهل على اللصوص ان يفتحوا فيها ثغرة . ولا تظهر البيوت المؤلفة من عدّة طبقات سوى في القرن الرابع ، وكانت الغاية الاولى منها التباهي والتفاخر . اما الغرف فضيقة جداً وارضها ترابية جامدة . أسباب الراحة مفقودة تماماً . ولم تشكل المراحيض معضلة قط لأن النظر قد صرف عنها في كل مكان .

ولا افضلية لبيوت الاغنياء سوى في رحابتها واتساع غرفها الموزعة حول فناء تحف به بعض الاعمدة . فلا يظهر البذخ إلا في عهد متأخر مقتصر على قاعات الاستقبال التي ألبست سقفها بالخشب وازدانت جدرانها بالمديح والرسوم . وقد كشفت اعمال التنقيب في منطقة خلقيس ، في موقع مدينة أولنثوس ، التي دمرت في اواسط القرن الرابع ، عن استعمال الفسيفساء التزيينية المصنوعة من الحصباء المستطيلة لا من المكعبات الصنعية ، والتي نرجح ظهورها هناك في اواخر القرن الخامس . وباستثناء هذا الفارق فقد أيدت هذه الاعمال الفكرة العامة التي تكونها عن أثينا النصوص الكتابية . ولا تفخّل البتة في الاثاث . فان أثاث القبيادس نفسه الذي يتألف ، باعداد محدودة على كل حال ، من الصناديق والمقاعد والطنافس والأسرة والاولاني ، لم يوفر اثماً مرتفعة حين باعته الدولة بلزاد العلني .

ما أن يبلغ البيت حدّاً ادنى من السعة والرفاهية ، حتى يفصل بين الغرفة او سيدة البيت
الغرف المحصنة للحياة العائلية البحتة ، اي نطاق الزوجية ، وبين الـ « اندرون »
اي نطاق الزوج .

تنتقل الزوجة مباشرة من البيت الوالدي الى البيت الزوجي ولا تخرج منه الا نادراً . وقد نسب توسيديد الى بريكيليس قوله ! « ان ميزة هذا الجنس قائمة في ان يتبلغ ادنى شهرة ممكنة بين الرجال ، خيراً اوشراً . » اما واجبات الزوجة الاولى فهي ادارة شؤون البيت الداخلية والاعتناء بالملابس والعناية بأولادها : الذكور الذين يخرجون من ولايتها في سن السابعة ، والاناث اللواتي يبقين معها حتى زواجهن . فالشؤون الاجتماعية والفكرية ، ولا سيما السياسية ، لا تعود اليها ، اذا قصدت تحاشي الفضيحة . بيد ان الشاعر لم يتردد ، في الملحمة الهوميروسية ، في اعطاء المركز الاول لوالدة « نوزيكا » في الولائم التي دعا اليها « القينوس » . ولكن هذا المشهد ما كان ليلقى تأييداً في اليونان الكلاسيكية . فجلّ ما نراه في تمثيلات اوريبيد وهزلية ارسطوفانوس وبعض المناقشات الفلسفية هو ان تقدّم الفردية كان مدعاة اولى لوضع قضية شخصية المرأة وتحريرها على بساط البحث . ولكن هذه الجسارات لم تخرج عن نطاق النظريات ولن تظهر نتائجها قبل العهد اللاحق .

ان الحياة الخارجية كلّها ، مما فيها المشتريات الغذائية من السوق ، حياة الرجل تعود للرجل .

فهو سيّد بيته قانوناً ، الا اذا الجأه حرصه على السكينة الى ان يتراجع ، شأن سقراط ، امام زوجة شكسة عالية الصوت . يستطيع ان يطلق امرأته دون ان يقدم اي مبرر او عذر ، شرط ان يعيد لها البائنة فقط . ويستطيع ان يقرر افعال « تربية » اولاده ، اي تركهم والقضاء على قارعة الطريق في الايام الاولى بعد ولادتهم . وكثيراً ما اتبعت هذه الطريقة فعلاً ، لا سيما حيال البنات ، لاعتبارات اقتصادية في بلاد فقيرة كان من شأن ارتفاع كثافة السكان فيها ان يؤدي الى كارثة كبرى . ولكن الحياة في هذا المسكن الضيق ، مع امرأة لم تثقفها التربية والعلائق الاجتماعية ، لا توفر له مزيداً من اللهو . لذلك فانه يقضي معظم نهاره خارج البيت ، في الاماكن العامة ، حيث يصادف اناساً ذوي معرفة يحادثهم ويستطلع آراءهم ويوثق عرى الصداقة معهم وعرى علائق اكثر خصوصاً احياناً .

البغيات اكثر من ان تعدّ . ومنهن من اشتهرن بثقافتهن الرفيعة . فهذه « اسباسيا » الملية التي لم يستتكف سقراط من اكرامها والتي جعل منها بريكيليس رفيقة حياته بعد ان طلق زوجته الشرعية ، والتي لا يحط من منزلتها في اعيننا سوى العلاقة التي ربطتها ، بعد وفاة عاشقها العنليم ، بتاجر اغنام استهوته السياسة هو ايضاً . غير انه لا يجوز لنا ان ننسب صفة الكمال لواقع غالب ما يكون قدراً ، برفع جميع البغيات ، حتى الاثينيات منهن ، الى مستوى اسباسيا . فقد جاء في احدي خطب ديموستين وصف ندخل معه الى عالم كله محاولات اختلاس ومساومات تقرّ منها النفس . ولا مرأ في ان هذا العالم المريب الذي تتخرج منه المغنيات والراقصات ، كان في الواقع اكثر اتساعاً .

اضف الى ذلك ان الحب اليوناني واقع رهن ، منشأه رفقة السلاح ومشهد العري اليومي في

نوادي الرياضة والرغبة - التي ليست دنساً كلّها - ، عند « العاشق » ، في الحماية والتربية ، وعند « العشوق » ، في التعجب والاطلاع . ففي مجتمع يجعل من مثل الرجل الاعلى ، كلما سمح له وقته بذلك ، تفتح طاقاته الفردية وانماء الجسم والعقل في توازن متوائم وخدمة الوطن في المجلس وفي ساحة القتال ، وفي مجتمع تقضي عاداته بفصل الذكور عن الاناث بالقدر الذي تسمح به الضرورات المادية ، وتحمل الرجال على اقصار معاشرتهم على الرجال وتجعلهم يتباهون بمزايا جنسهم الحشن ، يستحيل ان ينطبق علم الاخلاق على العلم الذي طبعته فينا ديانة وعادات مختلفة .

يتوسع الاثرىء في هذه العلائق الخارجية بدعوة اصداقهم مساء الى ولائم يحضرونها لهم في منازلهم . ففي « الاندرون » الذي وضعت فيه اجمل مفروشات البيت ، يقدم الداعي ، دون ان تعاونه زوجته في ذلك ، الى اصداقائه في الندوة السياسية او الادبية ، في الرياضة او الفجور ، ما لذ وطاب من الطعام الشهي والنبيل الفاخر . ويتبادل المدعوون اطراف الحديث على هواهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، مستلقين على الأسرة ومتوكئين على مرافقهم يخدمهم العبيد وتلقي البهجة في قلوبهم الإلهي المختلفة ولا سيما لعبات الزمار والقيشارة والرباب التي يحدّد القانون أجورهن القصوى . ويغاب ان تتحول هذه الاجتماعات المسائية الى مشاهد سكر وثلث تقزز النفس يخرج منها اكثر من واحد في حالة يرثى لها . ولكن ليس ما يمنع الاعتقاد بحقيقة او احتمال ما يرويه كسينوفون وافلاطون اللذان يقولان ان إيطار « الوليمة » البهجة قد اتسع لمناقشات رفيعة المستوى في السياسة والفلسفة والعلم يشترك فيها سقراط نفسه الذي يبدي من جهة ثانية تصلباً عنيداً في مقاومة السكر .

كثيراً ما شُبه المجتمع اليوناني في العهد الكلاسيكي بـ « ناد للرجال » . وان في هذا التشبيه لكثيراً من الحقيقة . فهو في الواقع مجتمع مدن تتأثر انظمتها وعاداتها لا بمصادرها البعيدة فحسب ، بل بشبه ديمومة الحرب ايضاً . فلا تستطيع المدينة الاعتماد الا على الرجال لتأمين سلامتها والدفاع عن استقلالها وكلاهما عرضة لتهديد دائم . لذلك فهي تشجعهم ، بحصر الحقوق السياسية فيهم ، على حياة خاصة تبعدهم عن العواطف المصطنعة المخنثة وتغذي فيهم المشاعر التي تعتقد هي بفائدتها منها . وتسير سبارطة حتى النهاية في هذه الطريق بنظامها العسكري وبوجباتها المشتركة الاجبارية كل مساء . غير ان المدن اليونانية الاخرى لا تتبعها الا من بعيد : فالمثال أبعد من ان يدعو الى الاقتداء به اقتداء كاملاً ، بسبب شكاسته . ولكنها لا تستطيع ولا تريد ان توغل في اتجاه معاكس تماماً ، فتكتفي بمحاولة تسوية ما بين هذا المثال وبين نزعات الفرد .

الكلاسيكية الروحية والجسمانية

ان تقدم الحضارة ، في أزهى ما لهذه الكلمة من معنى ، قد انطوى في تباين التقدم الثقافي اليونان الكلاسيكية ، في مثل هذه الظروف ، على فوارق ملموسة . فاليونان هذه متباينة الثروات ، لا تتساوى فيها كثافة السكان ، ولا يتساوى هؤلاء حذقاً وبراعة . وقد اعتمدت فيها جنباً الى جنب ، حتى في اضيق الدول حدوداً ، النواحي الاقتصادية المختلفة على انواعها . فنهض اكثرها تطوراً في جوار اكثرها تخلفاً . وهي متباينة التعليم والانفتاح على حياة الفكر والنظريات العقلية . وهي اخيراً متباينة الانفتاح على التأثيرات المفيدة ، او الحافزة على الاقل ، التي تشع بها عوالم وحضارات اخرى ، وبالتالي متباينة الانتفاع باقتباساتها واتصالاتها : فالفلاح الذي يتغذى من محاصيل ارضه لا يهتم للاهوت كهنة هليوبوليس او للعلوم البابلية اكثر من اهتمامه لتصدير «سلقون» كايوس او «قار» مقدونيا .

يكفي ان تذكر الصورة الهزلية المؤلمة التي رسم ارسطوفانوس سقراط بها في مدينة استطاع جميع سكانها ان يروا سقراط ويسمعوه ، حتى تترامى لنا ضالة النخبة التي تدوّقت أحاديث هذا الفيلسوف . وكلتنا يعرف ان هذا الفيلسوف ، الذي تبدو لنا صفاته المدنية سامية جداً ، قد أصدرت احدى المحاكم الشعبية عليه حكماً بتجريح الشوكران السام ، فكان اول واشهر ضحية من ضحايا عداء الجماهير للذين لا يفهمونهم . وفي مباريات اثينا المسرحية لم توزع الجوائز وفقاً لاقتراح المشاهدين بل وفقاً لاقتراح لجنة تنتخب بالقرعة من اصل لائحة روعيت في وضعها الكفاءات . وهكذا فان ارفع نظام ديموقراطي في اليونان كان ابعد من ان يعلل نفسه بالواهم ، بل طابق تلقائياً وضعاً ، أدركه هو خير ادراك ، تسبب في ابقاء مجالات واسعة في ما تكاد روائع هذا العهد ان تحملنا على الاعتقاد بأن الاضواء الساطعة تغمره بصورة متساوية . فان شطراً كبيراً من اليونان ، وشطراً كبيراً من السكان في اكثر المناطق حظوة ، لم يشتركا في عيد الروح والفكر والمثل .

أولوية أثينا
ان تفوق أثينا على هذا الصعيد ، لا مشاحة فيه . وقد تحمل بعض
تصريحات الخطباء الأثينيين على الابتسام بافراطها الساذج الذي يتخلل
الكبرياء والصلف أحياناً . وان ما يخرجون فيه عن الاعتدال هو في الحقيقة محاولتهم استثمار
هذا التفوق استثماراً سياسياً ، كما يخرج عن الاعتدال أيضاً المعاصرون الكثيرون الذين يبررون
الاستعمار الذي نهضت به مدينة « أثينا » باسم نجاحاتها واثراها في حقول الفكر والفن . بيد ان
أشد خصوم هذا الاستعمار حماساً لم ينكروا قط هذه النجاحات ، لا بل انهم أدوا لها ضمناً ما
تستحقه من اكرام بمحاولة السمو بالمدينة التي حققتها الى هذا المستوى . ولكنهم لم يستسيغوا
ان تنتزع أثينا من حلفائها او رعاياها اليونانيين قسماً كبيراً من الموارد المالية التي أتاح لها
الاتفاق على اعيادها وانشاءاتها البنائية . وان اولئك الأثينيين انفسهم الذين عارضوا بريكليس
لاعتبارات سياسية داخلية ، قد اخذوا عليه استخدام الاموال التي يدفعها حلفاؤه « لتمويه
وتزيين المدينة كالمغناجة وإثقالها بمجارة كريمة وتمثيل ومعابد تبلغ كلفتها ألف منا » . وهذه
المعابد انما هي البارثنون مع تمثال الإلهة « أثينا » المصنوع من الذهب والعاج ، وكثيراً ما
ننسى ، عند الكلام عنها ، اولئك الذين تكبدوا في الواقع ما اقتضته من اموال . فإن أثينا ،
في الوقت عينه ، كانت تنتزع من امبراطوريتها نصف مداخيلها تقريباً . ولولا هذا الخرج الذي
لم تتردد أثينا في استخدام وخداتها البحرية لاستيفائه ، لما قام البارثنون على القلعة .

وقد رافق هذا الاستثمار المالي المباشر ، من جهة ثانية ، أشياء أخرى كثيرة . فبالاضافة الى
مظهرها السياسي ، ارتدت الامبراطورية الاثينية مظهراً اقتصادياً ، اذ ان وجودها يفسر ، أقل
ما يفسر ، نمو مرفأ البيرة الذي لم يستعد ازدهاره بسرعة منذ القرن الرابع ، بعد انهيار
الامبراطورية ، الا بفعل التفوق الذي احرزه قبلاً على جميع منافسيه . وهكذا فان نشاط البيرة
يوفر مداخيل الجمر وكبؤ من الخامات والاسواق للصناعة ، مضاعفاً بذلك موارد أثينا . ويكثر
هذا النشاط ، على صعيد اوسع ، من الاتصالات البشرية باجتذاب الاجانب وتسهيل انتقال
الأثينيين ، فتتأثر حياة المدينة شيئاً فشيئاً بنتائج حتى في الحقول التي لا تمت الى الماديات بصلة .

بيد انه يتوجب علينا الاعتراف بفضل بعض الاسباب الخفية : المؤهلات الطبيعية التي تحلى
بها شعب معتدل أدت به صدف الهجرة والانصهار العنصري الى الاقامة في شبه الجزيرة هذا
المتصل باليونان الوسطى ، وتحلى ذلك الرجل ، بريكليس ، الذي ادار دفة الحكم في المدينة خلال
السنوات الحاسمة التي احتلت فيها الحضارة الكلاسيكية مركز الصدارة ، بالموهب السياسية التي
فرضته على مواطنيه ، وبميزات عقلية سامية ، في وقت واحد . ولكن يجب ان لا ننسى مثل
« ميله » في العهد السابق : فهنا أيضاً صادف النشاط الاقتصادي والثروة والعلائق المتنوعة المختلفة
الاتجاهات وثبة ثقافية ليست نشأة الفلسفة الايونية سوى اشهر ظاهراتها . ولا يمكن ان يكون
تكرار هذه المصادفة مجرد اتفاق : فان الحضارة الاثينية في القرنين الخامس والرابع ، شأن

الحضارة الملية في القرن السابع والسادس ، لا تنفصل عن التيارات المختلفة التي تغذيها والتي جعلت حينذاك من المدينة التي نشأت فيها اوسع مراكز الحياة المادية نشاطاً وازدهاراً في المتوسط الشرقي .

لذلك فان كل ما يرتبط اذ ذاك باثينا ويبدو كأنه جزء من رصيدها ليس بالضرورة أثينياً . بنوع خاص . فالاجانب المقيمون وغير المقيمين يلعبون فيها دوراً سبق ونوهنا به قد تكون اهميته النسبية كبيرة احياناً . وبين رجال الادب والعلم والفكر بنوع خاص ، تجتذب اثينا او تضم اليها كل ذي مكانة . فبعد تحصيل العلم على ايدي الاساتذة ، يأتون اليها لتثقيف التلامذة او اقله للبحث عن تثبيت مركزهم لدى النخبة التي نشأت او اجتمعت فيها . فندوة بريكليرس واصدقائه مثلاً ، بما فيهم اسباسيا ، والمهندس هيوداموس الميلي ، والفلاسفة وذوو النظريات اناكساغور الكلازوميني وبروتاغوراس الابديري وبيتوكليس الكايوسي ، والمؤرخ هيرودوتس الهاليكارناسي ، تشمل بين اعضائها الاجانب والمواطنين على السواء . اجل لم يفض هذا الاجتذاب الى احتكار الثقافة ، فقد بقيت هناك مراكز اشعاع مستقلة . ولكن هذه المراكز لا تخرج البتة عن نطاق الاختصاص يدفعها تقليد محلي او تأثير رجل زائل . وقد شبه ايزوقراط اليونان بمدينة واحدة ، فتكلم عن « القرى » الريفية و « المدينة » . ولكن الوقائع العصرية الراهنة تضطربنا الى تحويل التشبيه : مراكز اقليمية تكسفها العاصمة التي يهاجر اليها خير عناصرها . وهكذا فان أثينا التي قيل عنها « مدرسة اليونان » و « يونان اليونان » هي عاصمة اليونان الروحية ايضاً .

١ - الديانة

لا تتجدد الديانة اليونانية تجدداً عميقاً خلال العهد الكلاسيكي ، بل تبقى ما وصلت اليه في العهد السابق ولا تفقد اية نزعة من النزعات التي ظهرت فيها . ولكن حيوية هذه النزعات متباينة وسناها الخارجي غير متساو وتطورها يخرج بالبعض منها عن النطاق الديني بمعناه الحصري .

ان الورع الشعبي ، الذي لانعرفه جيداً لأنه قلما يستهدف لنظر الناس ولأنه متواضع جداً في مظاهره ، يحافظ على حرارته وعلى كل ما يستتبعه من خرافة وقفاظة احياناً . وتشبع الطبقات الاجتماعية المتدنية ، ولا سيما الريفية منها ، حاجتها الى الايمان والحماية ، بممارسة بعض الطقوس التي غالباً ما يحلون مغزاها الاصلي وبالتردد على معابد محلية كثيرة يكتفي آلهتها المؤلفون ، الذين اوجدتهم تقاليد قديمة جداً ، بنذوراتهم المتواضعة . ويخلو علمهم هذا من اي سمو ، وما الغاية منه سوى الحصول على عون فوري في الصعوبات اليومية ووقاية المواشي والحصيد المقبل والتخفيف من ألم ورهبة مراحل الحياة البشرية ، منذ اوجاع الولادة حتى احوال الموت . ولا يخرج علمهم هذا عن مستوى العقول البسيطة التي تحس باستمرار وغموض بوجود قوى فائقة قريبة منها لا سبيل الى ارضائها الا براسم لا مكان للمنطق فيها . فانما الخوف هو

الذي يوحى بهذه المراسم، لا الشعور الديني بالمعنى الحضري. ومن شأن قدمها وتفاهتها ان يدهشا كل من لا يفكر بوجود المجالات المظلمة في ارفع الحضارات بهاء .

بيد انه يحدث ان تتغلب هذه الخرافات وتقيّد النخبة على الرغم من اشمئزازها. ففي صبيحة يوم سلامين، كما جاء في بلوتارك، اذ كان تيمستوكليس يقدم الذبيحة ، احضر امامه ثلاثة اسرى من ذرية كسر كسيس . فشهد احد العرافين اذ ذاك شهابا يرتفع من وسط الذبائح وسمع عطسة عن يمينه . فأمر في الحال « بالتكريس » اي بتضحية الاسرى لديونيسوس « اومستيس » « أكل اللحم النقي » . فمانع تيمستوكليس اولاً ثم اضطرتة الجماهير اضطراراً الى التسليم بذلك . وباستطاعتنا ان نستشهد بأمثلة اخرى كقضية بتر اعضاء قناثيل هرميس ودعوى القادة في جزر « ارجينوز » والحكم على سقراط بالاعدام بتهمة « انكار آلهة المدينة وادخال آلهة اخريين جدد إليها » . وليست الصوفية ما يبعث انفجار الغضب الشعبي هذا ، وباستطاعتنا ان نتصور والحالة هذه عنف ثورة تتميز بفطرة وحشية يندفع فيها الشعب الأثيني نفسه ، في ساعات الشدة ، على الرغم من اشتهاره بالحلم والشفقة ، ومن السمو الفلسفي والجمالي الذي توصلت اليه ديانتة الرسمية .

ولا تزال هنالك عبادات شاملة أيضاً ، على ما في ذلك من تناقض ، في عالم العبادات الشاملة مزقته الحروب بين مدينة ومدينة .

اجل ، ليست هتافات الغيب أقل منها رواجاً في الماضي . فجل ما هنالك أن الدول أقلت من استشارتها أو من التأثر باجوبتها. ففي سبيل دعم بعض التدابير السياسية، استعان بريكلليس بدلفي وحصل على عونها فعلاً . ولكنه لم ينتفع بذلك انتفاعاً يذكر لأن الشعور قد ساد بان هاتف الغيب انتھاري أو أنه يستنشق الريح أو يخضع لتأثيرات يصعب الاعتراف بها دون مس الشرف . فقد اتهم بالرشوة وبالحضوع للعظماء . ولم يستنكف الرأي العام من الاعتقاد والتصريح بان عرافة دلفي ، بعد أن سايرت الفرس قبل سلامين ، سايرت على التوالي سبارطة وبيوسيا وفيلبوس . وليس في الحقيقة باستطاعة المعاصرين أن يدركوا « الحروب المقدسة » ، الاولى في القرن الخامس ، والثانية ولا سيما الثالثة والرابعة في القرن الرابع ، التي اعلنت باسم الاله على مدنسي القديسيات ، الا كحروب عادية تسببها شهوات السيطرة المتقابلة وتستتبع أحلافاً دبلوماسية وعسكرية ليست الديانة لها سوى حجة واهية فحسب . وقد كان من سبارطة نفسها، المشهورة بتعبدها العميق لأبولون المنتصر على الحية الاصلية، أن ساندت، تشفياً من طيبة، الفوسيديين المقيمين في دلفي على الرغم من استنجايرهم المرتقة بأموال الإله . وحين قام فيلبوس المقدوني في حربه ضد مدنسي القديسيات ، بتتويج جنوده بغار أبولون، لم ينخدع احد بهذا المشهد التمثيلي ، وقد اتفق قيام وضع مماثل لوضع دلفي في مكان آخر من اليونان . فقد بلغ من تشيع معبد دياوس لأثينا ما حال دون استمراره في تقبل اكرام الايونيين التلقائي . وليس غير القسر ما

حفظ لأعياده ظواهر الاجتماعات الدولية ، التي تتفاوت في الحقيقة تفاوت نفوذ المدينة الحامية وقد بلغ من ادراك الديليوسيين لهذا الواقع انهم حاولوا ، دون جدوى على كل حال ، حتى قبل انتصار فيلبوس على أثينا ، ان يتوجهوا الى دلفي ، أي عملياً الى الملك المقدوني ، لنيل استقلالهم . وعلى الرغم من بعدها عن الطرق الكبرى المطموح فيها ومن كونها أكثر المعابد حياداً حتى ذلك العهد بين معابد الدرجة الاولى ، تطرأ على اولمبيا نفسها ، في القرن الرابع ، تبدلات سياسية المصدر . فقد فرضت سبارطة الطاعة بالقوة على المدينة التي يرتبط بها المعبد . ثم سكّنت كنوز المعبد نقوداً للانفاق على الحرب ، وقد كان من حدة المنافسات ان جرت المعارك حتى داخل الأسوار المقدسة .

فالعبادات الشاملة إذن لم تخدم قط قضية تهدئة العالم اليوناني ، بل أدخلت الالاب الكبرى عليه جذوات انشقاق جديدة ، اذ ان التنافس بين الدول قد أفضى الى تحطيم الحواجز المعنوية التي كانت تكبجه فيما مضى ، باستثناء حالات نادرة مشينة .

ولكن ذلك لم يمنع هذه العبادات من الاستمرار في البقاء . فما زال الاحتفال بها يجري بأبهة ، وان في التنافس الحاد حيال الاشراف على معابدها لدليلاً على ثروة كنوزها وعلى النفوذ الذي لا يزال عالقاً باسمائها . ولا تتقيد التقوى الفردية بنفوذ الدول ، فتنهمل الاكتتابات لإعادة بناء معبد دلفي الذي دمره الزلزال في السنة ٣٧٣ . ويرافق ابدأ مواعيد الاحتفال بالالاب الكبرى مهادنات مقدسة لا تحرق إلا في ظروف استثنائية . وتجذب هذه الاعياد ، أكثر من اي وقت مضى ، جماهير الحجاج الذين يعرفون أنهم في امان على طرقات السفر الطويلة أحياناً . وتزداد شهرة الفائزين باطراد ، كما تزداد باطراد ايضاً مظاهر التكريم التي تحيطهم بها مواطنهم الفخورة بمجد ينعكس عليها . وتطلب من الشعراء قصائد مناسبات للاحتفال بآثارهم . وفي السنة ٣٥٦ ، سار فيلبوس المقدوني على غرار مستبدي القرن السادس واول القرن الخامس وعلى غرار القبييادس ايضاً الذين استثمروا لشهرتهم نجاحات جيادهم ، فابتهج بثلاثة احداث تلقى اخبارها في وقت واحد : الهزيمة التي أوقعها احد قواده بالآثريين ، وولادة ابنه الاسكندر ، وفوز جياده في الالاب الاولمبية .

بيد أن استمرار النفوذ وازدياد الابهة لا يخفيان حقيقة الواقع . فالمشاهدون والمتبارون يتناسون رويداً رويداً الاله الذي تؤلف المباريات أهم مرحلة من مراحل الاحتفال بعيدة . وتصبح المباريات مجرد مشهد وتفقّد عملياً صفة الاحتفال الديني . وينتهز الخطباء فرصة وجود الجماهير ، للإلقاء ، أو أقله لنشر خطب صرفوا الوقت الطويل في صقلها : فليس من ظرف أفضل لبلوغ الشهرة واحتذاب الزين أو التلاميذ . ويحرص المنظّمون على الاكثار من المباريات وتنويعها حتى لا يبقى عيدهم دون الاعياد الاخرى وحتى يأسروا انتباه المشتركين ويضاعفوا عددهم . ويكمل المصارعون تقنياتهم ويخضعون انفسهم لتمرين شاق ، ويمتدحون المصارعة ، متأكدين من الانتفاع مالياً فيما بعد بالمجهود الذي بذلوه .

وهكذا فإن روحية الالعب الكبرى قد تبدلت . أجل ، لا يزال الاغريق ، كما في الماضي ، يحسون فيها يوحدتهم العنصرية واللغوية ، وحتى القومية نوعاً ، على ان هذه الصفة الاخرى غير ذات أثر . ولكن العيد الديني لم يلبث ، يوماً بعد يوم ، أن أصبح مجرد فرصة أو حجة لمظاهر الابتهاج الجماعية . وزالت حرارة التقوى ، وفقدت المباراة مغزاها كتقدمة مجهود تلقائي لاله يولي النصر لافضل المتبارين ويعين بذلك ، لا اسرهم او اقوامهم ، بل اكثرهم اعتباراً وتقديراً في نظره . ولا شك في ان ابولون دلفي كان ينشر ، بفضل المزيد من الحكم القصيرة ، تعليماً اخلاقياً موجزاً : « اعرف نفسك » ، « لا شيء يتجاوز الحد » ؛ ولم يقصر مفهوم الرجس على الصعيد الطبيعي دون غيره . ولكن زفس اولمبيا لم يأت شيئاً من ذلك ، واذا استطاعت الالعب الرياضية التي تبناها ان تعزز الصفات الجسدية في الشعب اليوناني ، فانها قد فقدت ، خلال العهد الكلاسيكي بالذات ، الصبغة الدينية التي اصطبغت بها في الاصل .

اسرار الفيسيس
Eleusis

اذا لم تزل هذه الصبغة الدينية تترأى في بعض المعابد التي يتجاوز فيها مؤمنون مختلفو التابعات ، فان ذلك محصور في المعابد التي تلقن فيها اوليات بعض الاسرار . وعدد هذه المعابد كبير في اليونان . ولكن واحداً منها فقط يجمع اتباعه في دائرة تتسع باطراد ، هو معبد الفيسيس ، في الأتيك ، على مسافة كيلومترات من اثينا .

لا عقبات تعترض الدخول اليه . فالعبيد انفسهم يُقبلون فيه ، ولا توعد ابوابه الا في وجه المجرمين والبرابرة . نحن لا نعرف احتفالاته معرفة تامة ، ولكن ما نعرفه عنها يكفي للقول ان كشف بعض اسرار الحياة الثانية كان يتخلل بعض الطقوس المنقولة عن العبادات الزراعية ؛ فقد اتمرك في عبادة الفيسيس ثلاثة آلهة من آلهة النباتات : « ديميتير » وابنتها « كورا » وديونيسوس . وكان ذلك عاملاً هاماً ثابتاً من عوامل نجاح هذه الاسرار . وقد اتفق اسمى مفكري العصور القديمة على تقريبها ، بما يحملنا على الاعتقاد بانها قد انطوت على تفسير رمزي عن طريق عرض غير مثير وتمثيل مختصر . غير ان ذلك كله كان يستدعي فكرة الموت ، مصدر قلق الانسان الدائم . وكان المشترك في هذه الاسرار يغادر المعبد مطمئناً الى المصير الذي سيكون مصيره بعد الاجل المحتوم . فقد كتب « سوفوكليس » ، وعلى غرار كثيرين : « طوبى ، ثم طوبى لأولئك البشر الذين سيذهبون ، بعد مشاهدة هذه الاسرار لمقابلة « هاديس » . اما الآخرون فكل شيء سيكون لهم عذاباً » . اما معرفة طبيعة كشف الاسرار هذا فمن اشد مشاكل الديانة القديمة اغلاقاً . فهل هو وسائل آلية لاتقاء الاخطار الرهيبة ، ام تعليم عقائدي قمين بارضاء القابليات العقلية المختلفة ؟ يتعهد المشتركون بحفظ السر ، ولم يحدث ان حفظ سرّ كهذا الذي اؤتمن عليه ، طيلة قرون ، عشرات الالوف من البشر .

من خواص عبادة الفيسيس انها توجهت الى الفرد كفرد ، بعيداً عن كل نظام قانوني وعن كل أثر عائلي او مدني ، الى الفرد وحده كما سيكون يوم موته . ولذلك كان نجاح هذه الاسرار

موازيًا لنجاح الديموقراطية الاثينية نفسها التي حققت النصر بتحريرها المواطن من ضغط الجماعات العائلية . فاصبح نجاح أثينا ، بفضل الفسيس ، منقطع النظير . فهي قد توصلت الى خلق عبادة شاملة من عبادة تحميها المدينة ويشرف عليها القضاة ويحتفل بها في معبد هو ملكها تتخذ هي حيال ادارته مقررات نافذة . وقد اقتضى منها ذلك الاعراض عن بعض ادعاءاتها ، بدليل فشلها ، في القرن الخامس ، حين اهابت بكافة الاغريق لأن يكرسوا بواكير حصائدهم لآلهات الفسيس اللواتي اطلعن البشر على اسرار زراعة القمح . ولم يصبح النجاح دولياً الا بعد ثبوت الحيايد السياسي وبعد الاقتناع بان عبادة الفسيس ليست عبادة مدنية على الرغم من كونها عبادة المدينة .

ترتبط الديانة اليونانية الكلاسيكية ، على العموم ، ارتباطاً وثيقاً خاصاً بالمدنية نفسها . ويسهم هذا الارتباط الى حد كبير ، والحالة هذه ، في جعل الحضارة اليونانية حضارة « البولس » بالذات ، لان تفتح هذه الديانة بسبب بدوره تفتح مظاهر اخرى في الحضارة .

ان للمدينة آلهتها وعباداتها ، وكلاهما متفاوت مرتبة ومنشأ واهمية حتى في نظرها ، ولم تتبن ما تبنت منها الا في عهود حديثة نسبياً ولاسباب مختلفة كثيرة . فهناك في الدرجة الاولى الآلهة « البوليسيون » اى المفروض فيهم ان يحمو البولس بنوع خاص ، لان المدينة تعلن انتسابها اليهم معتبرة عبادتهم كنظامها الاساسي وكنوعان وضمانة لميثاقها الاجتماعي . وهكذا فان اثينا هي مدينة الآلهة « اثينا » التي تعبد بهذه الصفة وتدعى لذلك « اثينا ولياس » . ولكن « اثينا » نفسها تعبد فيها ايضاً بصفتها « اثينا ارغاني » (العاملة) و « نيقى » (النصر) و « هيجيا » (الصحة) ... فبأية نسبة تبقى « اثينا بولياس » في جوهرها ، والحالة هذه ، يا ترى ؟ ومن جهة ثانية ، فان العبادات « البوليسية » لا ترى ضيراً في قيام عبادات اخرى متوازية كثيرة .

تنوع طبيعة هؤلاء الآلهة تنوعاً كبيراً جداً . فبعض آلهة الاولمب العظماء الذين قديميهم صفة عبادة يحاورون بعض آلهة العائلات القديمة ؛ وبعض الابطال المرتبطين بتاريخ المدينة يحاورون آلهة غرباء توخى الاغريق من تكريمهم تجنب عداوتهم . ولم توضع قط لائحة نهائية بالآلهة ؛ فلا يختصر فيها ، أقله نظرياً ، خوفاً من استياء قوة فائقة الطبيعة ؛ وليس ما يحول دون اطالتهما . لذلك فليس هنالك عبادة لمدينة بل عبادات المدينة . وقد يترابط بعض هذه العبادات ، على تفاوت في قوة الترابط ، تقرب بينها الاسطورة او ظروف تبنّي الدولة لها . ولكن ليس ما يوحدتها كلها في مجموع بطامي . فقد جعلها قرار المدينة تتجاوز دون انصهار ، وليس ما يجمع بينها سوى الجوار الجغرافي في ارض واحدة وفي بواذر - وربما نفوس - جماهير واحدة .

وتتنوع هذه البواذر نفسها تنوعاً لا نهاية له . فالاعیاد والذبايح والقرابين والصاوات واحده

في جوهرها ولكنها تختلف بتفاصيلها وتنظم وفقاً لبرامج لا تحصى . لا بل ان الانظمة المتعلقة بكل عبادة لم توضع بصيغة لا تقبل التغيير . فهي لا تلغى البتة إلغاء رسمياً بل يكتفى بإهمالها الى ان تسنح فرصة ممكنة للعمل بها . ولكنها توسع وتحوّر ويضاف إليها : ويكفي لحدوث ذلك ان تقلبه تقلبات الذوق أو الشعبية أو السياسة أحياناً .

التصلب والتساهل
يتضح من هذه الميوعة في لائحة العبادات المدنية وطقوسها ، ان الآلهة البولياسيين لا يهتمون لا لإبعاد حسود ولا لموجبات مازمة . فتعدد الآلهة مدعاة للتسامح . وليس هناك طبقة خاصة بالكهنوت يميل أفرادها بالفطرة الى العناية بحقوق الآلهة . فالكهنوت وظيفة عامة تسند ، لفترة محدودة ، الى مواطنين لا يفرض فيهم معارف خاصة يعينون بالانتخاب أو بالقرعة وفقاً لطريقة أشبه بطريقة تعيين القضاة . ويحدث غالباً ان يضيف هؤلاء القضاة الى صلاحياتهم الادارية أو السياسية صلاحيات دينية يتبعون في استخدامها ارشادات موظفين ضليعين في معرفة الطقوس والصينغ . ولا وجود للعقائد الايمانية نفسها لأن الاساطير التي تقوم مقامها تنطوي على فوارق لا عدت لها .

يحمي التشريع الديانة المدنية . وذلك ثابت فيما يخص أثينا على الاقل حيث يواجه القانون جريمة « الزندقة » التي تعرض مرتكبها لأقسى العقوبات . أجل لم يعمل بهذا القانون إلا نادراً ، ولكن هذا القانون واقع راسخ ، وهو سلاح رهيب لا يتردد المسؤولون في شربه عندما تبدو الدولة في خطر او عندما يعتبرون ، مخلصين او غير مخلصين ، بأن بعض الممارسات التقوية تسيء بشكل فاضح الى الاخلاق العامة : فقد استصدر ديموستين ، مثلاً ، حكماً بالاعدام على امرأة وجميع اعضاء عائلتها بتهمة تعاطي السحر والتسميم . فلا يصح اذن ان ننسب ، حتى لأثينا الديموقراطية نفسها ، روح تسامح مثالية .

غير ان ما لا شك فيه هو ان العبادات الاجنبية المنشأ ، لا تتعرض البتة للتحريم ، بهذه الصفة ، لا بل تكاد لا تكون موضوع شبهة او ريبة . فان إله الواحة الليبية ، آمون ، مثلاً ، الذي تمثل بزفس دونما صعوبة ، قد انتقلت عبادته ، عن طريق كيريبي الى القارة الاوروبية حيث أقيمت له المعابد ، ولم ينتظر بعض مشاهير الاغريق ، من امثال ليسندروس ، مثل الاسكندر لاستشارة عرفائه . وقد اضطرت أثينا ، بسبب مرفأ البيره الذي يؤمه البحارة والتجار والمسافرون من كل البلدان ، ان تبالح في التساهل . فسمحت في الدرجة الاولى بأن تؤسس جمعيات خاصة يعبد افرادها الآلهة الغريبة كالإلهة « بنديس » التراقية و « وإيزيس » المصرية و « الوالدة الكبرى » الفريجية و « أدونيس » و « عشتروت » السوريين : ومنذ البدء ، انضم بعض المواطنين ، دونما تستر وتعرض لأي لوم ، الى صفوف الاجانب المقيمين وغير المقيمين في هذه الجمعيات . وأقرت أثينا بعد ذلك دخول العدد الاعظم من هؤلاء الآلهة الى العبادة الرسمية .

'ان في هذا التساهل ، أو بالأحرى هذه الغالبية للتسرب ، ما يثير الدهشة . فالمدينة التي تصلبت ذاك التصلب في الدفاع عن استقلالها السياسي والحفاظ على قضاة مواطنيها العنصرية تفتح الشجر بيديها في تفرداها الديني ولا ترى ضيراً في ان تصاب بعدوى ديانات البرابرة . وقد برهن افلاطون مرة اخرى عن منطقته السليم في حكمه القاسي بالغاء العبادات الاجنبية . غير ان الدولة اليونانية قد استسلمت ، في الحقيقة ، لتيار لا يقاوم ، كما ستسلم له الدولة الرومانية فيما بعد . فقد كان كافياً لعامة المواطنين ان يتخلصوا بعض الشيء من خرافات الورع الشمسي حتى لا يجحدوا في الآلهة اليونانيين الحرارة والحمة اللتين تستطيعان اسباع نهمهم للتأثر الداخلي الخالص . لذلك فقد بحثوا عنهما في غير مكان وفرضوا على الدولة العبادات التي وجدوها فيها .

السجبة والديانة المدنية
والاعباد

اقتصرت الديانة المدنية ، ظاهراً ، على الطقوس . ففي حوار وضعه افلاطون ، يحمل سقراط محدثه على التصريح بما يلي : « ان التقوى وضمان خلاص العائلات والمدن في معرفة قول ما يرضي الآلهة اما بتأدية الصلاة واما في تقديم الذبيحة » . فلم تكن عامة المواطنين لترى أبعد من هذا . ولم يتح لغير الفلسفة ان تعيد الى هذه الديانة الآلية عاطفة اكثر عمقا . وفي القرن الخامس على الاخص ، اكتشف قسم من النخبة - وفي طليعتهم بريكليس - مفتاح سر ذلك في التفسير العقلي : فهو يصعد ديانة المدينة بتجريد روحي واخلاقي يحافظ على بعض البرودة في الاعالي التي تسوء الديانة إليها . اما في القرن الرابع فتستخدم الاساطير ، بفصل افلاطون بصورة خاصة ، دعامة لصوفية تحاول خلق وحدة بين نزعات النفس الخالصة وبعض المبادئ المجردة . ولكن هذه النزعة وتلك تعديان كلتاها امكانيات المواطن العادي .

بيد ان المشرفين على إدارة البولس قد حاولوا احاطة طقوس الديانة المدنية بهالة من البهاء والنضارة . فان توسيديد ينسب الى بريكليس قوله : « نحن قد وفرنا للروح سبل اراحة لا تحصى عن طريق الالعاب والذبايح الدورية المنتظمة » . وكان في الواقع للتسلية والراحة الضروريتين للسكان اهميتها الخاصة لا سيما وان الاغريق قد جهلوا « يوم الأحد » الذي يحدد تعاقب اسابيع العمل . ولكن اعتبارات اخرى كان لها اهميتها ايضاً . ويأتي في الدرجة الاولى منها الحرص على تقريب وبالتالي على توحيد جميع اعضاء المدينة في بادرة تكريم حماعي لآلهتها الحامين ، اي للمدينة نفسها عملياً : وهكذا ، تسير الديانة جباً الى جنب مع المصلحة الانانية ، التي هي مرتبطة بها على كل حال ، وتقوم مقام الاساس بالنسبة لاطونية . وتأتي في الدرجة الثانية الرغبة في استمالة هواة المشاهد الجميلة واعلاء شهرة المدينة في حرارة التقوى في اعين الاجانب ، وذلك توطيداً لأركان نفوذها وخضوعاً لطمع مستمر في رفع العيد البلدي الى مرتبة الاعياد الشاملة .

وهكذا فان كل المدن قد اندفعت في المنافسة . فاحتفلت ببارطة نفسها ، التي سخر

خصومها من حياتها المستوحشة الضججورة - وللملة بريكليس التي سبق واستشهدنا بها ما يبررها ويدرر التأبين الذي وردت فيه مقارنة ضمنية لغير مصلحة العدو - بأعياد كثيرة تتخللها الحركات واغاني الجوقات المتعاقبة التي أطنب المعجبون في تمجيد نقاوتها القديمة . غير ان أثينا ، بفضل ثروتها وذوق حكامها وبفضل شمول وقيمة ما تركته للأجيال اللاحقة من مستندات ادبية وفنية قد كسفت كل منافساتها على هذا الصعيد ايضاً . ولكن تجدر الإشارة ، اذا ما اسئلتنا اعياد الفسيس التي نوهنا بنجاحها النادر ، الى ان قيام الامبراطورية الاثينية هو وحده الذي استطاع ، بصورة عابرة بالتالي ، ان يطبع اشهر اعياد اثينا بطابع شامل جزئياً . وما كانت التقادم التي أقت بها وفود حلفائها الى إلهتها « أثينا » سوى تعبير عن اعترافهم بقوتها المادية : فان قادية الاكرام فيها لإلهة مدينة اجنبية ، لم يكن ليوافق النزعة الى الاستقلال التي تجيش في كل مدينة مهما بلغ من ضعفها .

اشتهر عيد « أثينا » الكبير باسم « باناثينا » وكان يذكر بتأسيس عيد الإلهة « أثينا » الكبير المدينة نفسها ، بتوحيد كافة الاثينيين سياسياً .

كان الاحتفال به سنوياً ولكنه يحاط بحلال خاص كل اربع سنوات . وينسب احداثه الى صولون او بيسيستراتوس في الربع الاول من القرن السادس . وضع برنامج المتنوع المستبدون اولاً وسارت الديموقراطية على خطاهم واصبح يستغرق في النهاية تسعة ايام . وكان يستلزم المباريات المختلفة : المباريات الفنية من إلقاء او « موسيقى » أي غناء على ألحان آلات موسيقية ؛ والمباريات الجيادية او الرياضية ؛ ومباريات الافراد او الجماعات ؛ ومباريات القوى او الحفلة ؛ والاختبارات المتناسبة و اعمار المتبارين من قتيان وشبان ورجال : السباق على ظهر الجياد والرقص بالاسلحة والسباق بالمشاعل . وكان الفائزون في اشهر المباريات يُعطون الجوائز قوارير ملأى بزيت زيتون الإلهة ، وهي القوارير الباناثينية الذائعة الصيت المصنوعة والمزدانة خصيصاً لهذه الغاية .

ويترك المشهد الرئيسي من مشاهد هذا العيد لليوم الاخير . وهو تطواف طويل تسير على رأسه الشخصيات الرسمية ويشترك فيه المقيمون الاجانب انفسهم . ينطلق من شمالي غربي المدينة مصطحباً معه ، حتى معابد القلعة ، الذبائح والقرايين . وبين القرايين قطعة فاخرة هي « البيلوس » المعدّة لتمثال « أثينا » ، تحيكها وتطررها ، طيلة سنوات اربع ، فتيات العائلات الكبرى وفاقاً لقواعد تقرّها السلطات تدور حول موضوع دائم هو صراع أثينا ضد الجبابرة . ويشكل هذا التطواف وهذه التقادم اكراماً يؤديه ، للإلهة البوليسية الاولى ، المدينة كلها وكل من يرتبط بها توحد بينهم فكرة واحدة : عرفان الجميل والامل .

أعياد ديونيسوس البارثونون ، يحملنا على الاحساس فوراً بالصلة القائمة بين الديانة والفن ، اذا كان تطواف عيد « أثينا » الكبير ، الذي يذكرنا به افريز

قامت اعياد ديونيسوس.. فنقل بنا ، عن طريق المسرح ، الى الحياة الادبية .
كان لديونيسوس عدة اعياد في السنة ، خلال الحريف وفي اوائل الربيع . يحتفل ببعضها في القرى الاقليمية ، اي في الارياف حيث عرفت الوجود ، وفي المدينة ايضاً . وقد نظمت في القرن السادس ، خصيصاً لأحد هذه الاعياد في المدينة ، التمثيليات المسرحية التي شملت فيما بعد اعياداً اخرى ، واهتمت الاقاليم نفسها خارج المدينة ، لاسيما في البيرة ، لتنظيم مثل هذه التمثيليات ، بالنظر للنجاح الذي كان يصادفه مثل هذا المشهد في العيد . وكانت هذه التمثيليات في الواقع ، بعد التطواف ، مباريات موسيقية ، مأساتية او هزلية . وقد اخذ بعض اغنياء المواطنين ، « الخوريغي » ، على انفسهم لباس وتدريب الجوقات الموضوعة تحت تصرف المؤلفين الذين وقع اختيار احد القضاة على مؤلفاتهم . وكانت الجوقات ، في المباراة ، تنتصر لقضية قبيلة « الخوريغوس » ، وكان فخر النجاح ، بعد قرار الحكام ، يعزى « للخوريغوس » والمؤلف على السواء . وهكذا يتضح نشوء المسرح الاثيني ووثبته السريعة .

تطور الأعياد يتضح ايضاً من العناية الفائقة التي احاطت بها الدولة هذه الاعياد ومن الاكلاف التي كانت تقتضيها أنها تتخطى الاطار الديني تحطياً بعيداً . اجل ، انها تحتفظ ، عن اصلها ، بالخطوط الاساسية : الذبائح والتقدم والتطوافات وشكل المباريات . وتستجيب المباريات ، في المجهود الذي يبذل اكراماً للاله ، لفكرة التنافس نفسها في المباريات الرياضية والالعاب في الاعياد الشاملة . ولكن ميزات اخرى ، فرضت بعضها النخبة الحاكمة ونشأ بعضها الآخر بفعل التطور الطبيعي ، تظهر باكراً جداً ولا تلبث ان تغلب رويداً رويداً . وتخدم الاعياد الدعاوة دولياً للمدينة وتقوي التحام الشعب ادبياً وتوفر لهذا الاخير ، بالاضافة الى اسباب الراحة ، عناصر ثمينة للاستقصاء الفكري والجمالي .

وقد حرص حكام الديمقراطية الاثينية على ان لا تقتصر الافادة من هذه الاعياد على الطبقات المسورة دون غيرها لاقتناعهم بنتائجها الحيرة على هذا الصعيد . فنجد عهد بريكليلس تلقى الفقراء مساعدة من الدولة تتيح لهم دفع رسم الدخول الى المسرح الذي كان اذ ذاك مجرد مدرج خشبي يحجزه الملتزمون - اذ ان المسرح الرخامي والحجري الدائم لم ينجز ، في منحدر القلعة الجنوبي ، قبل اواخر القرن الرابع ، بعد ان انجز اقليم البيرة اعداد مسرحه . ولكن ما لبثت ان رفعت قيمة هذه المساعدة ودفعتها لمناسبة اعياد لا توجب على المشاهد اي انفاق ، باستثناء اجره عن يوم يعطله . فقدت هذه المساعدة ما يبررها وغدت في الواقع مساعدة مالية من شأنها اذا ما اضيفت الى تعويضات الاشتراك في الحياة السياسية ، ان تشجع بطالة المواطنين وتسهم في صرفهم عن العمل المنتج لمصلحة الاجانب المقيمين وتقتطع في الوقت نفسه قسماً من الموارد العامة كان بالامكان الانتفاع به في حقول آخر .

في الوقت نفسه تقريباً من القرن الرابع انخفض عدد التمثيليات الجديدة المعدة لاعياد

هيونيسوس ودرجت العادة على ان تعتمد ، في كل عيد ، تمثيلية منتخبة بين التمثيليات التي عرفت شهرة واسعة في القرن الخامس . وكان لهذه العادة ما يبررها تدني مستوى التمثيليات الجديدة ، ولكنها لم تتلاف قط هذا التدني . فكانت النتيجة ان افضى الحرص على ارضاء الجماهير بما قننظره الى اقصار المباراة على التنافس في الاخراج والجوقات والممثلين .

وافضى تطور مواز الى اعطاء الممثل مركزاً اكبر في المباراة المسرحية . وكان هذا المركز في البداية على درجة قصوى من الاغفال اذ كان المؤلف نفسه يقوم بدور الانشاد . ولكن ازدياد عدد الأشخاص في التمثيلية قد رافقه ازدياد الاقتناع بما يمكن لموهبة وخبرة الممثلين ان تضفيها من اهمية على التمثيل ، لا بل من قيمة للتمثيلية احياناً ؛ فظهر حينئذ الممثل الممتحن كما ظهر من قبل ، في الألعاب ، الرياضي الممتحن . ثم شملت المباراة المسرحية الممثلين الذين نالوا التيجان على غرار « الجوريجي » والمؤلفين والذين انتظموا فرقاً وانتقلوا من مدينة الى مدينة عاكدين اتفاقيات كثيراً ما تحدد فيها الغرامات التي يتوجب دفعها على من يخل بشروط العقد . وقد عرف بعض هؤلاء الفنانين شعبية دولية . وقد ألتحت لهم تنقلاتهم ، والعلاقة الطيبة أحياناً التي ربطتهم بالحكام ، ان يتدخلوا في الظروف السانحة في المناوصات الدبلوماسية . ومما لا ريب فيه ، على كل حال ، ان شهرتهم ، قبل ايمانهم ، هي التي اجتذبت الجماهير الطامعة بالمشاهد الرفيعة النادرة .

تمّ هذه التبدلات المتجانبة عن المخراف في الفكرة التي نهضت ، في البداية ، بالاعياد الدينية ، فغدا فيها جوهرأ ما كان في البدء مجرد مشاهد ثانوية او ملحقات فقط . وازمحلت صبغتها الدينية المميزة امام قيمتها المسلية والجمالية والادبية والسياسية . واصبحت الديانة مجرد فرصة وحجة .

٢ - الفن

ان هذا العهد لاجمل عهود الفن اليوناني الذي تفيض تحقيقاته اذ ذاك باسمى المعاني الانسانية ، وقد فرضت اهمية تعاليمه العامة والدائمة ان نرى فيه ، حتى في ايماننا هذه ، الفن الكلاسيكي بالذات . وهو ينمّ عن ألعمة وملكة قياس وانسجام خليقتين بارضاء الانسان في كل زمان ومكان شريطة احلال العقل فوق المادة . غير ان هذا الفن مرتبط « بالبولس » وديانتها وظروف حياتها الجماعية ونظرتها الى الانسان ارتباطاً من الوثوق بحيث يفقد عظمة شموله عندما تتخطى « البولس » اوجها وتنحدر في طريق الهبوط . وان إعجب واحب مظهر في « المعجزة اليونانية » هو هذه الموازاة بالذات بين النزعات الجمالية عند جماعة بشرية في فترة من وجودها وبين نزعات الانسان الدائمة . ويجب البحث عن سر ذلك في مجهود التعبير والتنظيم المنطقي الذي يخضع الفنانون اليونانيون الواقع له لينتقلوا به ، فوق العرض والتركييب والصورة ، الى مستوى مثالي وحقيقي معا يستطيع فيه بلوع جمال غير عابر .

الناس في مجهود
هندسة العمارة
لم تكن هندسة العمارة ، كما سبق ورأينا لتعير كبير اهتمام للمساكن البشرية ، لا بل انها تكاد لا تهتم لحاجات المدينة الدنيوية . فقد بقيت الابنية

التي شيدها المستبدون من ساحات عامة وينابيع واقنية جر المياه دون منافس في ظل الانظمة التي خلفتهم والتي اقتصرت عملها ، في هذا الحقل ، على الابنية ذات المنفعة الفورية كالاسوار ودور الصناعة والمخازن العمومية التي لا اهتمام فيها البتة للناحية التزيينية . فقد كرس المدينة مواردها للخدمة وتكريم آلهتها متجملتها بما يعبر عن ورجها الخاص .

لا بل انها تدخر مجهودها الرئيسي لمساكن الآلهة اي المعابد . ولا تهمل الابنية المفيدة للاحتفالات او الاعياد الدينية ولكنها تحلها في الدرجة الثانية . ولا يظهر المسرح كبناء دائم ثابت ، على الرغم من فائدته لراحة المشاهدين ، قبل اوائل القرن الرابع . ومهما كان من روعة اعياد ديونيسوس ، فان اثينا قد تأخرت على هذا الصعيد ، عن عدة مدن اخرى .

ومما تجدر ملاحظته من جهة ثانية ان المعابد الكبرى الجامعة تحاول ان لا تتأخر عن ركب المدن . اجل لا تزال بعض المدن تشيد الابنية في حرم بعض المعابد . ولا تزال بعض المذاخر ، من امثال تلك التي كرسها الاثينيون لدلفي بعد انتصارهم في ماراتون ، تتبع تقليد القرنين السابع والسادس . ولكن هذه الطريقة تخف رويدا رويدا مفسحة المكان لتقدم اكثر تواضعا كالتماثيل والندورات المختلفة . غير ان المشرفين على ادارة المعابد الكبرى يعوضون عن تقاعس المدن باقدامهم على البناء بفضل ثروات الاله الخاصة التي لا تزال تغذيها هبات تأتيا من شتى المصادر . وهكذا فان معبد ابولون ، في حرم دلفي ، بعد ان تهدم في السنة ٣٧٣ ، قد اعيد بناؤه بفضل الاعطيات الدولية . واذا حصل بعض التأخير في هذا العمل — اربعين سنة تقريبا — فمرد التأخير الى اضطرابات الحرب المقدسة الثالثة . وقد بذلت الجهود نفسها وحقت النتائج نفسها حيث تعود ادارة المعبد الى المدينة ، لا الى المقاطعة كما في دلفي ، فأمنت الموارد الضرورية اذ ذاك تبرعات الحجاج التقوية الكثيرة . وهذا ما حدث في اولبيا حيث شيد معبد زفس قبيل السنة ٤٥٠ وحيث تعددت الابنية في الد « ألتيس » . وحدث هذا ايضا في مدينة « ابيدورس » الصغيرة في « الارغوليد » التي استطاعت ، بفضل الشعبية المتزايدة التي عرفتها معجزات إلهها الشافي « اسكليبيوس » ، وبسرعة مذهلة ، ان تجهز معبدها وتنشئ هيكلها والبناء المستدير السري ومسرحها الذي يتسع لـ ١٤٠٠٠ مشاهد .

بيد ان الغلبة تبقى للمدن التي تقدم لنا اذ ذاك ، على الرغم من ضعف نفوذها الديني ، مشهد تنافس في حقل البناء يزيد في وقعه المؤثر انها بحاجة الى مواردها المحدودة لمتطلبات اخرى كثيرة . لا شك في ان للسجد الباطل بعض الاثر في ذلك ؛ ولكن هذا المجد لا يكفي لتعليل كل شيء ، لاسيما في مدن بعيدة عن طرق انتقال المسافرين الكبرى ، تعلم علم اليقين انها مغمورة وانها ستبقى مغمورة . فيجب ان نفرز فيها مكانا للتقوى الصادقة ولتذوق الاشياء الجميلة . وقد حدث الانطلاق ، في العهد السابق ، من مناطق تكاد تكون خارجة عن العالم اليوناني ، اي من آسيا الصغرى والغرب حيث كان الازدهار الاقتصادي قد بلغ شأواً بعيداً . غير ان هبوط هذا

الازدهار ، في اعقاب تهديد او واقع ضغط البرابرة قد افضى الى إضعاف هذا الانطلاق . وما ان انتهت الحروب الميدية ، حتى استلمت اليونان الاوروبية القيادة في هذا النطاق وغيره ، ومنذ اواسط القرن الخامس تفوقت أثينا على كافة منافساتها بشمول ونجاح مجهودها . وجدير بالإشارة هنا ان ايقاف هذا المجهود ، في السنوات الاخيرة من حرب البلوبونيز ، بعد ان اتمت اثينا « الايرخشيون » ومعبد « اثينا نيقى » لم يثن اوروبا اليونانية عن متابعة السير قدما . ففي اواخر القرنين الخامس والرابع ، تتفرع الوثبة وتشمل مدنا صغيرة كقرية « باسي » الاركادية ، وتنقل في الوقت نفسه الى آسيا الصغرى بفضل النجاح الذي صادته نشر الحضارة اليونانية بين البلدين . وفي حركة الجزر هذه نحو المركز الذي بدا وكأنه يجتذب اليه كافة التيارات الكبرى في الحضارة اليونانية كي يسموها الى القمة ، ثم في هذا المد الذي يعيد الفعل الخلاق الى اصغر الخلايا الى مناطق الحدود التي دب فيها الانتعاش ، يحق لنا ان نرى شبه رمز مختصر للتاريخ اليوناني .

التقليد والكمال في الهندسة المعمارية في المناطق الجغرافية المختلفة فاه
هندسة العبارة لا يفضي الى اشكال اقليمية مختلفة الجوهر .

فالمعبد انما يحافظ على المنظر العام الذي خلفته له القرون السالفة ، والذي لم يخالف الا في حالات خاصة جداً لا نستطيع اليوم تبيانها بصورة كاملة ، على كل حال . ويبدو هذا الخرق في ابنية ابيدورس المستديرة وفي معبد مرماريا الصغير داخل حرم دلفي مثلاً . ويبدو كذلك في بناء الايرخشيون الاثيني المعقد ، المعد لايواء الذخائر القديمة واقدام التقاليد العبادية العائدة للمدينة ، برواقه الرائع المزدان باعمدة على شكل تماثيل نساء يستند اليها ساكن المعبد لا يخفي سحرها ما فيها من غموض واهام . وتمثل هذه المخالفات نزولا عند متطلبات القاهرة خاصة لا احداً يستجيب لتصميم على التجديد كان من المحتوم ان تقاومه قوة التقليد .

لا تبديل في الرسم العام الذي يؤول ابداً ، بالتبسيط ، الى قاعة مستطيلة تتقدمها ، عند طرفيها ، اروقة تعلوها « الواجهات » الثلاثية الشكل . ولا حل جديد لمعضلة السقف الذي يفرض ، كما في السابق ، تحديد العرض بين الجدران او اللجوء الى الاعمدة الداخلية . ولا يحول هذا التشابه الجوهرى دون الفوارق الخاصة : كوجود الاعمدة حول المعبد او فقدانها ، والمسافات بين الاعمدة وارتفاعها ، وقياسات وترتيب المساحة الداخلية ... غير ان بعض المعابد يحافظ بدقة ، في النسبة بين اعمدتها ، وفي تنضيد الاقسام التي تعلو الاعمدة ، وفي توزيع النقوش الزخرفية ، على مبادئ الطراز الدوري او الطراز الايوني . وهناك معابد تؤلف بين الطرازين تأليفاً زاد في تنويعه ظهور عمود جديد في القرن الخامس هو العمود الكورنثي ذو التاج المليء بالنقوش الذي صادف نجاحاً متزايداً . ولكن كل ذلك مجرد فوارق لا يمكن نعت اي منها بالثورية .

بذل مهندسو العبارة جهداً حقيقياً في محاولة تحقيق التناسق العام والكمال في ادق الاجزاء .

واذا ما حصل ، في هذا المجال ، ان المجزت ابنية اكثر تألقا ، في جبال اجزائها الدقيقة ، من البارثونون في اثينا ، فانه ليس من بناء اعظم منه جلالا عقليا في المطابقة النسبية ، ولا ازهى في انتقاء المرمر المستخرج من الـ « بنتيليك » ولا اروع في نحت هذا المرمر وتنضيده ولا اعمق درسا في تصحيح الانخطاء التي قد يسببها بعد مرمى النظر او تأثير النور الساطع . كل شيء فيه حتى قياسات اصغر حجر ، قد صمم بقوة منطق تحير المخيلة بشموها وافراطها في الدقة ، ونفذ بمهارة تدهش العقل بحرصها على الكمال . ولا يمكن ادخال اية شفرة سكين ، مهما بلغت دقتها ، بين القطع التي تتألف منها الاعمدة والتي تربط بينها كلاليب معدنية . وتنحني سافات الاساس التي تستند اليها الاعمدة الخارجية ، من كلا طرفي المحورين ، بمقدار ٠.٠٥٩ م و ٠.٠٦٧ م في اوجه البناء التي يبلغ طولها ٣٠.٨٦ م ، وبمقدار ٠.١٠٧ م و ٠.١٠٩ م في الواجه الطويلة التي تبلغ ٦٩.٥١ م : وليس المقصود من هذا التحدب الخفيف تصريف مياه الامطار بل تجنب الشعور بالانخفاض الذي يحدثه ، في وسطه ، خط افقي طويل ، لا سيما وان هذا التحدب يقابله تحذب مماثل في السالك فوق الاعمدة . وباستطاعتنا الاستشهاد بأرقام اخرى كثيرة تثبت ، شأن الارقام السابقة ، ضبط الدقة الفنية الذي توصل اليه منفذو الاعمال وسيادة اولئك الذين صمموا في الفكر ، كليا وجزئيا ، العمل الواجب تحقيقه .

تنوع النقاشة
اما النقاشة فاكثرت تنوعاً . لا شك في ان الديانة لا تزال مصدر الالهام الاكبر للفنانين . فهي تقدم لهم المواضيع ، بصورة شبه دائمة ، مباشرة او غير مباشرة ، للتأثيل والنقوش الناقشة على السواء كما تقدم لهم ابنيها او معابدها الامكنة المعدة لها هذه النقوش . ولكن مصدر الالهام قد يكون غير ديني احيانا . فيمثلون شخصيات سياسية او قوادا عسكريين ، على قيد الحياة احيانا — اقله منذ اواخر القرن الخامس . ويمثل النقش على النصب المدفني الميت في حياته اليومية . ويفرض تشبيه الآلهة بالبشر ، حتى في اقدس المشاهد ، نقل الامثلة الالهية عن الدنيويات ، وليس المغزى الديني في هذه الامثلة احيانا سوى عذر ورجعة : فهل تفقد افروديت ، التي مثلها براكسيثيل ، انوثتها مثلا عندما لا يطلق عليها اسم البغي « فريني » ؟

ثم ان هذه المواضيع الدينية نفسها اكثر تنوعاً من الابنية التي شيدها المهندسون . فالاسطورة توفر مشاهد تعالج بالترتيب : اعمال « هيراكليس » والصراع بين شعب « اللايث » وشعب « الصنطور » ومعارك « الامازون » ... وكم مشهد آخر اختاره الفنانون من الامثال والآلهة ! اضاف الى ذلك مشاهد الحياة الدينية ، الذبائح وعدتها والتطوافات والمباريات على اختلاف انواعها واطواعها . ثم ان المعبد الدوري اخيرا قد فرض وجود النقوش في لوحاته الرخامية ، كما فرضه المعبد الايوني في افريزه وكما فرضه كلاهما في المثلثين المتقابلين فوق الاعمدة الخارجية ؛ وكان كل بناء ، او كل حرم مقدس ، يتقبل ، اذا ما صادف الاله فيه بعض الاكرام من قبل الافراد والجماعات ، النذورات والتأثيل التي يعتمد الشهبان في تحقيقها بالترتيب على المرمر .

وهكذا فان النقاش قد اتاح له المزيد من الامكانات المادية التي حق لمهندس العمارة ان يحسده عليها بسبب تقيده ببعض امثلة الابنية التقليدية .

استمر الفنانون هذه الوفرة استثمارا واسعا كما يفيد منها مؤرخ اليوم . فان التنوع الذي كان نتيجهتها الطبيعية يسمح له بان يكتشف ، بوضوح اجلى منه في دراسة التحقيقات الهندسية ، الخطوط الكبرى لتطور رافقي ، دون شك ، التطور العام في الاذواق والعواطف والاخلاق والافكار . ومن جهة ثانية ، اقله في بعض الحالات الخاصة ، يتاح لنا ، بفضل بعض القطع الاصلية النادرة ، او بفضل النسخ التي نرجح مطابقتها لهذه القطع والتي لا نراها غير لائقة بها ، او بفضل ايضاحات موثوق بها تركها لنا المؤلفون القدماء ، ان نترامى او ان نمس احيانا نزعات الفنان الخاصة ونموغه المميز واسهامه الشخصي في تطور فنه .

أوج الكلاسيكية
كان التطور ، في الدرجة الاولى ، تسامياً نحو اوج الكلاسيكية الذي أدرك خلال الربع الثالث من القرن الخامس . فما زالت هنالك ، حتى السنة ٤٥٠ ، بعض آثار العهد القديم : الابتسامة المصطنعة التي يتأخر زوالها على الرغم من تلطفها التدريجي ، ولا سيما بعض المجمود في اوضاع الاجسام واسترسال الالبسة وبعض الخرق في تنسيق المجموعات النقشية . ولكن تحقيق المهارة الكاملة يتم بسرعة بفضل « ميرون » و « بوليكليت » و « فيدياس » .

توفق الاول الى ان يظهر بصورة محسوسة ، في جمود المادة ، الحركة المنتهية والحركة المبتدئة . ويزيد في قيمة هذا التأليف ايضاً ، مع انه بالغ الاتقان بمحد ذاته ، ما يوفره في التمثيل للتعبير عن العواطف تعبيراً خفياً : ازدرأ « أثينا » الفتية الغطريسة التي كأنها توقف سيرها هنيئة وتدير رأسها لتتنظر باستخفاف الى طمع « مارسيا » المرائي والخزي الذي يسرع الى تناول الاداة الناقصة التي احتقرتها ، والتوتر المعنوي والجسدي على السواء البادي في تمثال « رامي الاسطوانة » « ديسكوبول » الراغب في اعطاء افضل ما عنده في جهد اخير تستعد له كافة عضلاته .

و درس بوليكليت جسم الرجل درساً مستفيضاً ؛ وألف كتاباً حدد فيه « قانون » هذا الجسم وقياساته المثالية . وقد طبق مبادئه في تماثيل المصارعين الشبان ، كالجندي (دوريفوروس) الذي يحمل ، في سيره ، الرمح على كتفه ، او كذلك الرجل (دياذومينوس) الذي يلف رأسه بعصية المنتصر . ولكن العنف في ضبط نقاشة العضلات في هذه التماثيل يلطّفه تناسق حتي لم يستطع تقدّم العلم ان يقضي على بداهته واثرخي تتركه ابسط حركة في الجسم كله .

اما فيدياس ، الذي يجب ان لا تنسينا شهرته الساطعة اننا لا نعرف بصورة اكيدة تمثالا صنعته يده ، والذي تقاس عبقريته مع ذلك بما تبقى من نقوش البارثنون التي صمّمها هو ونفذت تحت اشرافه ، فانه قد استطاع ان يضيفي على الآلهة والالهات جلالات لا مثيل له ، وعلى الالبسة رشاقة تليق بالجسم الانيق الكريم الذي يرتديها وعلى الوجوه وقاراً يعبر عن المثل الاعلى

الديني عند النخبة . وقد توافق الناس في الزمن القديم على الاعتراف بان من يشاهد تمثال زفس الكبير ، وهو الذي قد حققه يجمع الصفات الذهبية والعاجية واقامه على عرش من الابنوس في معبد اولمبيا ، لن يكون بعد ذلك شقيا . وفي هذا الحكم اعتراف بفخامة هذه الطرفة وصفاتها التي لا تنسى . ولكن فيه ايضا اعترافا بالثقة التي توحى للمخلوق الوضيع الطمأنينة العميقة والنبيل العظيم والابوي معا اللذين استطاع فيدياس ان يرسمها على قسما زفس الاولبي سيد الآلهة والبشر . اما نقوش البارثونون الرخامية التي تمثل ، في المثلثات ، بعض المشاهد مسن اسطورة « اثينا » إلهة المدينة ، كولاتها الاعجوبة بسلحتها الكامل من جبهة زفس وظهور شجرة الزيتون فجأة حين انكرت على بوزايدون حقه في تملك الأتيك ، والتي تبسط ، على الافريز البالغ متراً ارتفاعاً و ١٦٠ متراً طولاً ، تطواف عيد هذه الإلهة الذي يشمل اكثر من ٤٠٠ شخص و ٢٠٠ حيوان ، فانها بلامراء ارفع تعبير مصور عن الديانة المدنية ، ذلك التعبير الذي حاول حكام أثينا بواسطته توحيد « البولس » كلها في عبادة إلهتها الحامية .

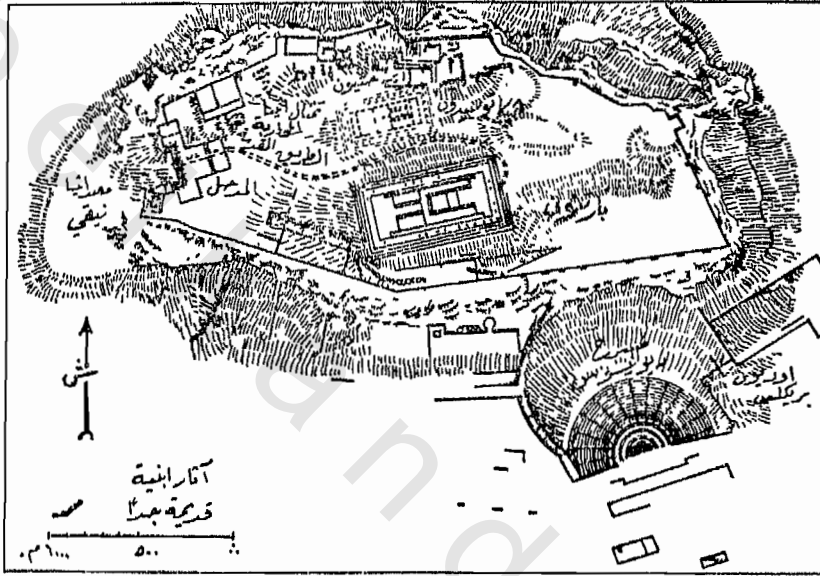
هؤلاء هم كبار الفنانين . ولكن هنالك اسماء لا تخص الى جانبهم ، كما ان هنالك ايضا عدداً لا يحصى من الفنانين الذين لا نعرف اسماءهم ، كاولئك الذين عملوا في البارثونون تحت اشراف فيدياس ، وعدداً ضخماً ، اخيراً ، من التحف التي قد يتطلب عدداً صفحات وصفحات . وان الشيء العجيب الذي يضيف على نقاشه ذلك العهد ميزتها الكلاسيكية ، هو ، بالاضافة الى كمالها الفني وما تعبر عنه من تحكم الفنان بأأمله والاداة والمادة ، قيستها العامة المرتكزة الى الاعتدال والمنطق . لا شيء فيها يفرض فرضاً عنيفاً او مباشراً على عين المشاهد : فان اكثر الاوضاع هدوءاً يسمح له بترائي الحركة ، كما ان الايماء في اول انطلاقها والتبدل الخفي في الوجه يكفيا لان يوحيا له العاطفة الخالصة . ولا يرد فيها شيء الى المصادفة : فانها توحى ، باتزانها وانسجام صنعتهما ، ان الفنان قد حقق التناقض القائم في ان يفكر ابدأ دون ان يوقف دقيقة واحدة احتجاج الحياة . وليس فيها شيء مستملح او عارض : فانها تتسامى حتى الأمثلة الطبيعية او الأدبية التي لا أثر في قيمتها المثالية للزمن والبيئة . وجلي انها تتوافق في كل ذلك مع النزعات الواعية التي تجيش في قادة الرأي في « البولس » والنزعات الغامضة التي خضع لها الانسان اليوناني باعطاء « البولس » الشكل الذي كان لها في القرن الخامس . وهي توجب على المدينة ايضا ان تكون جسماً معتدلاً ، متناسباً ومنظماً من الناحية المنطقية ، ومركباً وفاقاً لقانون داخلي ، ومنقاداً للعقل ، وطامعاً في الانتقال بالمواطنين الى انسانية افضل . وليس من قبيل المصادفة اذا كان فيدياس ، في آن واحد ، معاصر بريكيليس وصديقه وبثابة وزير الفنون الجميلة عندهم .

ولكن هذه المفاهيم الجمالية قد اشتقت من مثل أعلى أرفع سمواً
وتجريداً من ان يوفر ارضاء دائماً . فبينما كانت الاحداث تثبت ان

النقاش في القرن الرابع

مثل البولس الأعلى ، النائي والوعر جداً ، قد اخفق اذ ذاك في تحقيق وحسدة المواطنين الادبية السامعين من موجباته وعدم اهليته ، برز تطور مماثل في النقاشة التي عنيت ، منذ ذاك الحين ، بالاستجابة لنزعات انسانية اخرى ليست دونه واقعية ، على الرغم من انها دونه تحليقاً عقلياً . فجاء التبدل سريعاً على غير شكاسة .

على الرغم من ذلك ، نقشت في اثينا ، خلال حرب البالكونيز ، تماثيل النساء التي تقوم



الشكل ٢٥ - قلعة أثينا في أواخر القرن الرابع قبل المسيح

مقام الأعمدة في منبر « الأيرخثيون »، وهي خليفة بفيدياس بتناسقها وجلال وقارها . ولكن نقشت فيها أيضاً مجموعة آلهة النصر التي تقوم على الدريزين الخارجي في معبد « اثينا نيقى » الصغير ، فوق مدخل القلعة الى الجهة اليمنى ، وقد مثّلوا منسّغين في جميع الاسلاب واعداد الذبائح . فبين افريز البارثون ، الواحد في تنوع مشاهدته التي تحيىها فكرة مشتركة تشرف كافة الأوجه والحركات ، وبين هذا الافريز المتكوّن من مشاهد متلاصقة تسحر بما تنطوي عليه من دالة طبيعية وانس جامع ، لاشك في ان هموم ولي العمل والفنانين قد سارت في اتجاه مختلف آخر . وسيقوى هذا الاختلاف مع الزمن باطراد .

ان العواطف ، وهي عواطف انسانية اكثر منها دينية ليس للعقل "مراقبة على اثرها في النفس" ، تقرأ بسهولة اكبر على الالوجه التي يجرؤ الفنان على اظهار آثار تعذيب الهوى فيها ، بغية خلق التأثير دونما لجوء الى التفكير . وتظهر اشكال جسم المرأة اكثر فأكثر دقة ووضوحاً واكثر فأكثر شهوانية ، في البدء تحت اللباس الخفيف الذي يلصقه الهواء بها ، وبعد ذلك في

غيرها المتصر ، بفضل ارميل براكسثيل ، ويعبر النقاش نفسه ، على كل حال ، عن شهوانية مماثلة ، في دراسة جسم المراهقين المشوق الاغيد الانيق على بعض التخنث . ثم تتليء الحركات حياة ، لا بل تتخلص من قيودها ، كحركات « الراقصة » التي مثلها « سكوباس » دائرة مضطربة ، او كحركات « الامازون » والاغريق ايضاً الذين يضربون ويدافعون عن انفسهم بشراسة ، على افريز ضريح هاليكارناس الفخم . وفي كل مكان يبرز الحرص على الواقعية التي تجعل حقيقة الحياة اكثر ظهوراً وتعطيها ميزة اكثر شخصية : فأنف الملاكين مسطح واذنهم منتفختان وعنقهم ضخم ، واذا أطال « ليسبوس » ساقى تمثال « ابوكسيومينوس » ، المصارع الذي يكشط العرق عن جسمه بعد الجهد ، فانه لا يتردد في اعطائه شعرا اشعث وعيدين جزعتين وفيما يكاد يكون منقبضاً لا ينفث الا جزئياً لنفث قصير لم يستعد بعد انتظامه .

لا شك في اننا نتخطى مع ليسبوس المثال الرسمي للاسكندر ورفاقه ، في الشطر الثاني من حياته الخلاقة ، عتبة العهد التالي . ولكن هذه الدلائل القصيرة تظهر بما فيه الكفاية ، منذ قبل الاسكندر ، ان النزعات التي ستطبع النقاشة الهلينية بهذه القوة ، لا تترأى ترائياً فحسب ، بل تقرب اكثر فاكثر الى فن لا يفقد شيئاً من مهارته الفائقة ، ولكنه ينصرف عن المثل الأعلى الكلاسيكي ، الذي يهمل منذ ذاك الحين ، لأنه لا يتفق مع تيار يدفع بالاغريق الى عالم جديد .

نحن نرى ان الفنون الاخرى دون هندسة العمارة والنقاشة بدرجات . وقد يكون رأينا خاطئاً ، على كل حال ، اما بفعل جهلنا ، واما بفعل تسلسل جهله اليونان واوجدناه نحن بين نشاطات فنية تستهدف كلها اضاء الجمال على الحياة الفردية او الجماعية .

الفنون الأخرى :
التصوير وصناعة الخزف والفخار

لا نزال في جهل مطبق حيال فن التصوير اليوناني لان تحفة واحدة من تحفه لم تصل الينا . ولكن واقع وجود هذا التصوير في ذاك العهد لا يرقى اليه شك ، وقد ارتدى اشكالا متنوعة جداً انطلاقاً من التصوير على الجدران لتزيين الابنية ، وبنوع خاص الرواق والمعبد ، حتى لوحة المسند الخشبية . ففي مدخل القلعة الكبير الذي شيد في عهد بريكليس خصصت احدى القاعات متحفاً للتصوير . وهذا يعني ان هذا الفن كان موضوع تقدير سام ، وسيعرب الرومان حيال الحصول على تحفه ، عن رغبتهم نفسها في الحصول على التماثيل . وقد وردت اسماء اشهر المصورين ، « بوليغنوت » « وزفكسيس » « وباراسيوس » في القرن الخامس « وابيل » في القرن الرابع ، محاطة بمديح كبير وبطرف تؤيد شهرتهم . وقد حظي « ابيل » لدى الاسكندر بالتقدير نفسه الذي حظي به ليسبوس . وباستطاعتنا ان نتبع على وجه التقريب تقدم فنه الذي لم يزل ، في اوائل القرن الخامس ، اولياً جداً وبطيء التحسن . فبوليغنوت قد جهل التصوير بحسب الرؤية واهمية الظلال والصبغ المتدرج ، وهذه كلها اكتشافات لم تتحقق الا في النصف الثاني من القرن الخامس . وكان « ابيل » اول من اكثر مسن استعمال الالوان الشمعية بفضل طريقة

جديدة تسمح بتلدين الشمع . فهل امكن التعويض عن هذه النواقص الفنية بفضل مهارة الفنانين وتناسق تفهمهم ومعرفتهم للأشكال البشرية ودقة سيكولوجيتهم ؟ هناك من يؤكد لنا ذلك ولكن اصدار حكم ، انطلاقاً من التحف نفسها ، لا يزال مستحيلاً علينا .

ليست هذه ، لحسن الحظ ، حال صناعة الخزف التي لا يأتي المؤلفون القدماء على ذكرها الا قليلاً ، ولكن تحقيقاتها قد وصلت اليها .

اما عهد هذه الصناعة الذهبي فهو القرن الخامس الذي احتلت خلاله اثينا ، مرة اخرى ، مرتبة اولى لا شك فيها . وقد ساعدها في ذلك ، على الصعيد المادي ، سعة تجارتها ، وبنوع خاص تصدير الزيت والنبيل ، اذ ان نقل السوائل قد اوجب عليها ، بالضرورة ، النهوض بصناعة الفخار . ولكن الآنية الفخارية الصفيقة كانت في الحقيقة كافية لهذا الغرض ، وليس ما يستلزم ، والحالة هذه ، انتاجاً رفيعاً . ولكن هذا الوضع قد اسهم في تسهيل ظهور هذا الانتاج ، بتشجيع التقدم الفني ، وباراز الكفاءات بين الصناعيين العديدين ، وزيادة امكانات البيع . ولذلك فان الامة الجمالية التي وفرها قسم من الانتاج ترتدي قيمة دليل هو أوضح وأفصح من ان نستطيع اجمال دلالة .

فهو يثبت في الدرجة الاولى وجود مواهب فنية فطرية يلفت نواها الانظار عند بعض العناصر على الاقل من العمال اليدويين . وقد حرص بعضهم على توقيع مصنوعاتهم ؛ ولكن الروائع المغفلة ليست ما ينقصنا ؛ ونحن نترامى من خلال هذا التواضع ، رجالاً مكبين ، في وسط الطبقة العاملة ، على عمل يتنافس في انجازه اهتمامهم في تأمين خبزهم اليومي ومشاكل اخرى اقل صبغة تجارية .

ثم ان رواج هذه المصنوعات لبرهان على سلامة ذوق زبن الخزافين . وكان هؤلاء الزبن من المواطنين في الدرجة الاولى . فالخزفيات المزخرفة كانت دارجة الاستعمال ، ونادرة هي البيوت التي اكتفت بالفخاريات الصفيقة ولم تفتن منها بعض القطع . ومن حيث ان الصفة الفنية لم تتأثر بذلك على العموم فيجب الاعتقاد -- مقارنة بالجاهل العصري -- ان الجماهير الاثينية لم تكن مبتذلة . وهذا في نظرنا استنتاج إلزامي يفرضه ، بصورة اكثر جلاء من درس الفنون الاخرى التي لا شيء يثبت لنا انها لم تقتصر مبدئياً على ارضاء النخبة ، درس الخزفيات التي يعتبر شراؤها اوسع استفتاء يومي يمكن تصوره . ولكن الزبن لم ينحصروا في الأتيك بل كانوا موزعين ومنتشرين حتى خارج بلاد اليونان . فمنذ العهد القديم ، صدرت روائع خزفية يونانية كثيرة الى البلدان النائية ، كإيطاليا الوسطى والقرم ، حيث عثر على بعضها . وقد حدث الشيء نفسه في ذلك العهد . فقد صدرت اثينا مصنوعات ، في القرن الخامس ، الى شواطئ البحر الاسود . واذا فقدت اثينا ، في القرن الرابع ، كثيراً من منزلتها في الغرب الذي نزع مصانع صقلية وإيطاليا الى سد حاجاته ، فان رؤساء قبائل روسيا الجنوبية ما زالوا زبنها الاسخياء . وانما

متحف الد « اوميتاج » في لينغراد مدين جزئياً لمدافنتهم بغنى مجموعات النادر . وإن في نجاح هذا الفن الرقيق لدى نخبة المجتمعات الاجنبية التي لها وحدها من الثروة ما يتيح لها اقتناء هذه القطع المختارة ، لبرهاناً جديداً على انتشار الذوق اليوناني الذي هو رائد الحضارة اليونانية والتعبير عنها في آن واحد .

اعتمدت من الوجهة الفنية ، طريقة تغلبت على غيرها منذ اواخر القرن السادس . وهي تقوم في خلفية سوداء ومساحة حمراء للمشهد تعين الرسم فيها خطوط دقيقة سوداء . اما الطريقة القديمة التي كانت تعتمد الصور السوداء على خلفية حمراء فقد زالت الاعلى بعض الآنية القليلة الطلب او ، احتراماً للتقليد ، على القوارير التي تقدم جوائز للفائزين اثناء المباريات في اعياد الإلهة « اثينا » . وقد خرجت عن القاعدة السائدة فئة اخرى من الآنية هي تلك التي تودع المدافن وبعض الاكواب النفيسة ذات الخلفية البيضاء والمتعددة الالوان الكامدة بسبب استعمالها المدفني .

ولكن الصفة الفنية في الجمل هذه المصنوعات غير ناشئة عن مقيتها ، بل عن شكلها وعن التحجب النقي الانيق الذي اعطي لمادتها الطيبة القابلة التمديد . ومرد هذه الصفة خصوصاً الى الالهام وسلامة الذوق في الصورة التي تزينها . وتصلح كل المواضيع للفنانين : تمثيل الميت بهيئة مثالية ، والاساطير الخرافية والبطولية ، ومشاهد الحياة اليومية . وتلفت الانظار هذه المشاهد الاخيرة ، الملهمة في اغلب الاحيان ، بقيمتها كمستندات اكيدة وبدايتها كرسوم اعدادية سريعة وايحائية معاً . فلمعرفة حياة الاغريق الخاصة ، الاستعدادات للزواج والاحتفال به ، اعمال النساء في الحذر ، اجتماعاتهن عند الينبوع ، التمارين في مكان الرياضة ، تسليمات الولايم ، الاعمال في المدرسة والمصنع والريف ، توفر الفخاريات رسوماً تفوق المستندات الادبية تنوعاً وتفصيلاً وافادة وحياة . فقد برز في اثينا اذ ذاك ، بصورة نادرة ، عدد كبير جداً من المصورين الذين لا نعرف ماذا يوجب الاعجاب بهم في الدرجة الاولى ، خصب ورشاقة الخيلة ، ام حدة الملاحظة ، ام الدقة والضبط والاناقة في التنفيذ السريع . ويضاف الى ذلك احياناً ، وينحصر ذلك في ارباب الفن ، قوة الالهام ، والخط الذي يحمل الناظر بعيداً ويوحى حالة نفسية شعر بها الفنان في اعماقه واداءها تأدية لطيفة : سرور الجهد الطليق والمنتصر ، الملام المتضرعة امام جثة ابنها ، استسلام الضحية وشفقة من يضرب الضربة القاضية ، حنان الوداع الذي قد ينذر بخطر انفصال نهائي لا ينصف من احواله اي ايمان يقين بحياة ثانية .

يتميز الاختصاصيون ، في مجد القرن الخامس ، عهوداً وطرائق يطيب لهم ربطها بتطور النقاشة وتصوير المواضيع الكبرى . ونحن يكفيننا هنا ان نلفت الانظار الى ما ظهر منذ اواخر القرن ، وازداد جلاء فيما بعد ، من اضافة مواضيع مبسطة ، تدريجياً ، على الرسوم الترينية ، ومن تمقيد في الرسم واستعمال صيغ متنوعة بما فيها التذهيب . وقد فقدت تنزيفات القرن

الرابع البساطة التي اتصفت بها في القرن السابق ، اذ ان الذوق قد تطور على هذا الصعيد ايضاً . وليس من المهم ان يكون الذوق قد تقدم او تقهقر بفعل هذا التطور ؛ فاذ لم يزل هنالك صناعيون ماهرون ، فلم يبرز فنانون محلقون في تصوير الآنية .

ان صناعة الخزفيات ، على ما نعلم ، قد احتلت اعلى مرتبة في ترتيب الحياة اليومية . ولا شيء تقريباً يسمح لنا بابداء رأي في تجارة الابنوس والصياغة . وهنالك بعض القطع الرائعة في المسكوكات ، لاسيما بعض تلك التي ضربت في سيراكوزا حاملة رسماً جانبياً نقياً للحرورية اريتوسا ، بينما تبقى اثينا امينة للقاعدة القديمة في رسم البومة الصمعاء ورأس « اثينا » . ولكن ما يجب ذكره حقاً هو التماثيل الفخارية . اجل انها صنعت في امكنة كثيرة ومنذ ازمة بعيدة ، ولكنها تتميز ، في القرن الرابع ، وفي بيوسيا خصوصاً ، بصفات جذيرة بالاعتبار . واذا اعوزتها العواطف القوية والغنية ، فان فيها من الرشاقة والاناقة والسحر ما يأخذ بمجامع القلوب . وتؤلف هذه التماثيل ، مع المشاهد المبصورة على الآنية ، مستندات ثمينة بحقيقتها ومستعذنة بظرافتها البديهة لازياء المرأة وحياتها في البيت وفي الخارج — لان القسم الاكبر منها يمثل نساء .

ان هذه الروائع الصغيرة التي تمتاز بدقة الملاحظة والابتكار البديع واتقان التنفيذ تقودنا الى خارج اثينا . ومن الموافق على كل حال ان يأتي اسم « تناغرا » المدينة البيوسية الصغيرة الذي اشتهرت به ، لان ادق هذه التماثيل واجملها من صنع هذه المدينة ، مناقضاً للغلاظة التي طاب للاثينيين ان ينعتوا بها البيوسيين جيرانهم ، واعداًهم في اكثر الاحيان . ولكن مهما يكن من هذا الامر ومن غيره فان إسهام اثينا في تحقيقات الفن اليوناني الكلاسيكي الرائعة تتفوق على إسهام كافة المدن الاخرى تفوقاً ساحقاً يصبح من التهور معه ان ننهي هذه العجالة باسم غير اسمها .

٣ — الحياة الفكرية

ان النعت « كلاسيكي » غني بالمعاني التي يصعب الاحاطة بها كلها . ولعله من الثابت ، على الاقل ، ان ليس من حضارة كبيرة جذيرة حقاً بهذا النعت اذا لم يقترن بهاء مصنوعاتا الفنية بهاء مؤلفاتها الفكرية ، واذا لم يلمس فيها ، من جهة ثانية ، بعض الانسجام النظري بين النزعات التي يخضع لها المبشكرون في هذين المجالين . هذه هي بالضبط حال العالم اليوناني في القرنين الخامس والرابع . فالحياة الفكرية لم تكن اقل سناء فيها من الحياة الفنية . وفي كلا الحياتين كان ما خلفه الاغريق للاجيال اللاحقة ذا اهمية رئيسية ، واذا نحن ارغلنا اليوم في بعض الطرقات ، فالفضل يعود لهم في شق اكثرها اماناً . اما تشابه المثل العليا فليس فيه ما يثير الدهشة اذا ما فكرنا ملياً بكل ما بذله الفنانون من مجهود عقلي في فهمهم : ومن الاكيد الثابت ، في ارج الكلاسيكية ، ان الفيلسوف اناكساغوروس والشاعر سوفوكليس والمؤرخ هيرودوتس قد عرفوا فيدياس في بطانة بريكلليس ، وان سقراط فيما بعد قد سأل الفنانين عن كيفية ادراكهم للجمال . لذلك فان المشاغل الهامة كانت متجاوزة وقد تبعم تطورها خطأ منحنيّاً واحداً . فكان

الهم الاول الحصول على معرفة منطقية ، اي تنظيم الانسان والطبيعة وفاقاً للعقل ، فاذا بقيمة هذا المثل الاعلى العامة تولي المجهود اليوناني قوة نافذة متبادية . ثم ساد الاقتناع ، بفعل التمتع في هذه المعرفة ، بان العقل لا يفسر كل شيء ولا يتحكم بكل شيء ، وبان هنالك قوى اخرى تعمل عملها لا تقل عنه واقعية واهمية .

يتوجب علينا ، في هذه الظروف ، ان نحل الفلسفة في المرتبة الاولى بالاستناد الى تأثيرها اذ ذاك في كافة النشاطات الفكرية الاخرى : ومن النادر جداً ان نرى كاتباً يونانياً لا نلمس عنده طابع المفكرين الذين قرأ مؤلفاتهم او استمع الى احاديثهم .

الفلسفة : التقاليد
والجدة في القرن الخامس

كان فلاسفة القرن الخامس اوفياء لحلم الطموح الذي دغدغ نخيلة فلاسفة القرن السابق ، فتابعوا في الدرجة الاولى البحث عن تفسير منطقي لطبيعة الاشياء . ولم يختلف امبيدوكليس واناكساغوروس وليسبوس وديموكريت اختلافاً حقيقياً عن الايونيين من حيث الطرائق المعتمدة التي كثيراً ما لجأت الى الخيلة الى الاسطورة احياناً بسبب افتقارها الى وسائل البحث الصحيحة ، ومن حيث صفة الحلول التي تبناها . فهم ، شأن الايونيين قد تحاجوا حول عدد وصفة العناصر الاساسية والقوى التي تؤلف وتفصل بينها لتكوّن منها الاشياء وحركتها الدائمة في آن واحد . وتكفي الاشارة هنا الى ان حدسهم لم يخطئ احياناً ، دونما حاجة منا الى الدخول في تفصيل نظرياتهم الذي لا نعرفه معرفة تامة على كل حال . فنحن نعلم مثلاً ان اناكساغوروس الايوني المنشأ والمقيم في اثينا قد اقيمت عليه الدعوى لانه علّم ان الشمس كتلة متأججة ، نافياً عنها بذلك صفة الالهية . ومما يلفت الانظار اكثر من هذه النظرية ، وهو موضوع الساعة اليوم ، نظرية الذرات التي تخيلها ليسبوس وتوسع فيها تلميذه ديموكريت . فالذرات ، في نظرهما ، صغيرة جداً ولا عدّها ، ولكنها متشابهة من حيث تركيبها ولا تختلف الاحجام وشكلاً ووزناً . ومن شأن الذرات الثقيلة منها اذا ما سقطت ، ان تسبب ، بفعل الصدمات وتفاعلها ، حركة لا نهاية لها تتولد منها الاشياء في مظاهرها المتنوعة . وقد كتب لهذا المذهب مصير نادر بفعل قصائد « لوكريس » وبفعل جهود علماء الطبيعة المعاصرين لجهة مبدأ الذرة . ولكن هذا المذهب واحد من مذاهب اخرى كثيرة وهمية وغاشمة ، لا فرق اذا كانت هذه المذاهب توحيدية او ثنوية او تعددية ، واذا ما استندت ، في تعليل نظام الحركة ، الى التضاد بين المحبة والبغضاء او الى الـ «نوس» (Nous) (الفكر) باعث الانطلاقة الاولى او الى بعض الامور الآلية . وقد اخطأت كلها بالثقة العمياء في طاقات الفكر البشري الاعزل من كل سلاح ، اذ ذاك ، امام معاضل شبيهة بتلك التي لم تحش الفلسفة اليونانية ، في اوائل عهدها ، من مواجهتها ومعالجتها .

وحدث حينذاك ، في النصف الثاني من القرن الخامس ثورة السفسطيين الفكرية والاخلاقية معاً . وليس لاسم السفسطي في حد ذاته اي معنى محط ، اذ انها تعني في اليونانية « رجل المعرفة » .

ولكن الحملة المفرضة اللاذعة التي قام بها ضدهم افلاطون بنوع خاص قد ألصقت بهم سمعة سيئة . وهم قد نفروا من جهة ثانية معاصريهم ، المتمسكين بأراء الزمن الماضي ، بفعل تجاسرهم ونجاحهم والارباح الطائلة التي جنوها من تعاملهم منزليين التعليم العالي المجرد عن كل غاية ، حسب الاعتقاد السائد ، الى مستوى نشاط تجاري عادي ، وكلها مآخذ تثير الابتسامة اليوم ، لا تمحو شيئاً من اثر ما حققه السفسطيون واهميته التاريخية .

فهم قد تجاوزوا إطار الفلسفة تجاوزاً واسعاً متناولين جميع نواحي المعرفة ومتمدين فيها طريقة واحدة . وهي طريقة ثورية في جوهرها لانهم لم يهتموا للمواضيع المجردة بل اعلنوا ، كما قال بروتاغوراس ، احد مشاهيرهم ، « ان الانسان هو قياس كل شيء » . فهل عنوا بذلك الانسان الحقيقي بكليته ، اي الانسان العاقل والعاطفي معاً ، العضو في الجماعة والكائن الفرد ؟ يرجح انهم قد شددوا ، على سبيل رد الفعل ، على المظاهر المهمة حتى ذاك العهد . ومهما يكن من الامر ، فان ما نهضوا به فوز لروح النقد التي استسلموا لها ، محتقرين التقاليد احتقاراً كلياً ، واخذ بمبدل الذاتية على اساس استحالة اية معرفة موضوعية . وكان من شأن هذا المبدأ ان يذهب بهم بعيداً : فلا سبيل اذن لاثبات او نفي وجود الآلهة ؛ ولا سبيل لاعتبار الشريعة ، « الناموس » الذي تأسست عليه « البولس » ، كواقع غير بشري او بئامن من التقلبات البشرية ؛ ولا سبيل لمعرفة حق مطلق وعدل مطلق يسموان على ما هو مفيد ويتميزان عنه . وهكذا فان كل شيء قد اصيب بهزة عميقة . فقد حث السفسطيون تلاميذهم في الوقت نفسه على استهداف النجاح قبل كل شيء . وتحقيقاً لهذا الغرض روضوا جدلهم ولقنوه صيغاً خطابية بارعة استطاب اكثرهم درسها وتعليمها وحددوا لهم كمثل اعلى ، لا سيما امام المحاكم ، «تحويل اقوى حجة الى اضعف حجة» .

لجأ المؤرخون الالمان ، في تعيين هذه الثورة العميقة الجذور الى الكلمة نفسها التي استعملت في تعيين ثورة « الانوار » في القرن الثامن عشر : *Aufklärung* . وان هذه المقاربة لواجبة في الحقيقة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اتساع الحركتين ومغزاها العام . فقد كان لعمل السفسطيين اهمية عمل « الفلاسفة » بعد ذلك بثلاثة وعشرين قرناً . فأثروا مباشرة في نخبة المجتمع ، وعن طريقها في طبقات اكثر اتساعاً ، ونشروا ما يجب تسميته بالثقافة التي كانت وقفاً على دوائر ضيقة ، اي ، فيما يعنيننا هنا ، تذوق بعض القضايا والاهتمام بجميع مظاهر الحياة الفكرية . وادخلوا ، على الفلسفة والعلم ، روحاً نقدية عميقة وخشية من تجريد لا رادع له ، لن يستطيع احد بعدهم ان يخرجها منها . وقد كانوا اخيراً في الاساس من انطلاقة الفردية المنتصرة التي لن تلبث ان تبدل الحضارة ، بادئة في جعل « البولس » نفسها تترجج على اسسها .

جعل ارسطوفانوس من سقراط ، في كتاب « الغيوم » ، احد السفسطيين لا بل شرهم في نظره . ولم تنقض اربع وعشرون سنة حتى حكم على من سخر منه بالموت ، فشرب الشوكران السام من

الكوب للذي قدمه اليه الجلاذ . فاذا سلمنا ان ليس هنالك اخطاء اعظم من الجرائم ، فما عسانا نقول عن الاخطاء التي تسهم في التسبب في الجريمة ؟ فالضحك عند قراءة « النجوم » يستلزم في الحقيقة استعداداً نادراً للنسيان .

يتعذر ، في الحقيقة ، فهم سقراط بدون السفسطيين : فهو على غرارهم ، وبعدهم ، يتحول عن البحوث النظرية حول المادة والحركة التي يعتبرها على جانب كبير من الطموح وعدم الثبات ؛ وعلى غرارهم وبعدهم ايضاً ، يكرس جهوده واجتهاده للانسان . ولكنه يفتقر عنهم بسلوكه وطريقته . فمن حيث انه اثيني - وهم ليسوا بأثينيين - ومواطن متواضع ومثالي ، لا ينتقل من مدينة الى مدينة للبحث عن المستمعين يلقي عليهم محاضرات جاهزة . وهو يريد في الدرجة الاولى وفقاً للحكمة الدلفية ، ان يعرف نفسه ويرى جلياً في داخله وبقتنع بحقيقة ما يشعر ويفكر به . وهو يعلم هذا المبدأ بالمثل معتمداً حيال كل شخص مبدأ « السخرية » وطارحاً على محدثيه اسئلة يتظاهر فيها بالجهل حتى يجعلهم « يولدون » ما هو كامن فيهم . ويفتقر عن السفسطيين ايضاً بتعليمه الاخلاقي والديني : يؤمن بوجود الالهة وتدخلها لدى البشر والامور البشرية ؛ ويعتبر ان السعادة الحقيقية مرتبطة بممارسة الفضيلة التي يمكنها ان تسيطر على الجميع اذا توصل الجميع الى التغلب على الاوهام المشتركة ونبت الآراء السائدة دونما تعليل . وهكذا فانه يلقي بالذاتية جانباً ويعيد مفاهيم الواجب والعدل التي سعى غيره الى ابدالها بمفهوم المنفعة ، تلك المنفعة التي يكفيه ان يحسن ادراكها حتى يتخطاها .

كل من اراد ان يوغل في عرض آراء سقراط الجوهرية الى ابعد مما قدمنا ، يحتاج الى اثبات غير متوفر . ولكن ما نتراه لكاف لان ندرك كل ما احدثه في الحياة الفكرية اليونانية هذا السابق المهد الطريق امام الشك المنظم والتأمل الباطني ، وامام علم الاخلاق العقلي وحتى امام اللاهوت الادبي . أضف الى ذلك ان تضحيتته بحياته على مذبح شرائع وطنه قد جاءت ، بقوة المثل ، تكمل تعليمه وتحلّده ، مع أنه لم يخلّف اي مؤلف مكتوب .

يسيطر سقراط ، في الحقيقة ، على فلسفة القرن الرابع ؛ وانما يختلف الفلاسفة في القرن الرابع اتجاه تلاميذه ، الذين لا يقيّدون أي تعليم محدد ، وفاقاً لاستحيائهم بجهود معلمهم المستمر توصلاً لحقيقة اكثر عمقاً . وبصرف النظر عن الشبه المطلق في انتسابهم الفكري ، فانهم جميعاً يتشابهون في كونهم مؤسسين او أقله معلمين لمدارس معدة لتقدير واسع ولحياة طويلة ، وفي ذلك ظاهرة واضحة للاهتمام الذي أثارته منذ ذاك العهد معاضل فلسفية طرحت بشكل جديد على بساط البحث .

فمن تلاميذ سقراط ، أنتستين ، الذي يعمل في ملعب « سينوسارغيس » الأثيني ، الذي سيشتق اسم مدرسته منه (*Cynique*) ، ان سر السعادة قائم في احتقار حاجات تولدها في الانسان ممارسة حياة تبعدة عن الطبيعة ، ولن يلبث هذا المبدأ ان يؤدي الى تظاهرات

« ديوجين » التي ادهت معاصرة ونشرت المحافظين على التقاليد . ولكن في هذه التظاهرات شيئاً آخر غير المناقضة المتجبرة والخارجة عن المألوف : ان فيها لبوعاً من حفيظة تلك الفردية المستمرة في تقدمها منذ منتصف القرن الخامس التي بلغ منها المرة ان احتجت على عادات المجتمع وعلى التقسيمات التي يفرضها وحتى على فكرة الوطن كبيراً كان أم صغيراً . فلا قيمة للانسان ، في حالته الفطرية ، الا بصفاته الفردية ، دونما تمييز في مرتبته الاجتماعية وقوميته . وكان ديوجين منطقياً مع نفسه حين نحت ، في زمن الاسكندر ، كلمة « كوزموبوليتس » « مواطن العالم » التي وقعت موقعها الحسن في تقهر وهزيمة « البولس » بينما اتسعت الآفاق اليونانية اتساعاً كبيراً .

ومن تلاميذ سقراط ايضاً ، اريستيبوس ، الذي تنشأ السعادة في نظره ، من قطاف السلذة حتى الشهوانية منها ، المنتخبة ، والحق يقال ، ببصيرة عقلية واهتمام لتجنب سيطرة الاهواء على الانسان . وسينقل « ابيقور » عن نظرة اريستيبوس ، خصوصاً ، ذاك الحلد الذي وضعه للانحلال الاخلاقي والذي كثيراً ما اهمله خصومه في انتقاداتهم .

ومن تلاميذ سقراط اخيراً افلاطون على الرغم مما نجد عنده من تأثيرات أخرى لا سيما البيثاغورية ، ومن ان تفرد القوي ، خصوصاً ، يجعله يسبق معلمه اشواطاً ، في حواراته التي يعطيه فيها ، بمجاز تقوي ، الدور الاول . كان اثينياً ومن عائلة شريفة وقد قترت نفسه منذ البدء من رد فعل الارهابيين اعداء الديمقراطية ، ومن الديمقراطية نفسها ، ومن العمل السياسي في وطنه ، وخيب امله اخفاقه في العمل الذي حاول القيام به كمستشار لمستبدي سيراكورا ، فاعتزل الحياة السياسية بعد اسفار كثيرة الى اثينا ونظم ، في الاربعين من عمره ، عند مداخل اثينا ، في حديقة البطل اكاديموس ، مدرسة استق اسمها (اكاديمية) منه ، بشكل طائفة تؤدي العبادة لآلهات الشعر . فأقبل عليها التلاميذ من كافة مناطق العالم اليوناني وقد اتى بعضهم حتى من الشرق ، من بلاد ما بين النهرين ومن ايران . ثم جاءت كتبه ، وهي روائع في الحداقة الجدلية والسحر الشعري والطلاوة الاليفة في خدمة فكرة لا تضحي بالفروغ الدقيقة على مذهب الحزم ، فنشرت تعليمه الشفهي وابقتة حياً .

ان آراء افلاطون تتحدى التلخيص بتنوعها وغناها وعمقها . ولكن التسبب على ما فيها من روح دينية زاهرة ليس في الحقيقة مما يروها . فالفيلسوف يحاول التوفيق بين العقل والعاطفة الدينية ونزاعاً ميالين تقريباً للقول انه انما يحاول التوفيق بين العقل ودفق الروح والقلب فالحبة ، أي تلك الزرعة الحارة نحو الجمال المطلق ، القرية جداً من الخير المطلق ، هي في نظره معيار الفضيلة ، ويكاد علم المعقولات يختلط عنده بالصوفية . ويستحيل التأكيد ان علم الهلك نفسه لا يجاور التنجيم عنده . لذلك فقد رأى بعضهم فيه المسؤول الاول عن « الانهيار

العصبي ، الذي يعزى اليه انه صرف الفكر اليوناني عن متابعة الجهود المنطقي الذي قاده حقيق ذلك التاريخ بمثل هذا النشاط وهذا النجاح . ولكن هذا الرأي لا يأخذ بعين الاعتبار كل ما قام في اعظم عهود الكلاسيكية ، الى جانب وخارج مذهب العقليين من النخبة الفليلة العدد ، والعجز الذي واجهته هة النخبة، حتى قبل افلاطون، في الحد من ازدياد وثبات نزعات مالت هي بالفطرة الى اعتبارها اقل نبلا . ولكن ما لا شك فيه ، على الرغم من ذلك ، ان افلاطون قد سلم هذه النزعات نهائياً شهادتها في النبيل .

ليست ديانتته على كل حال الديانة التقليدية الزاخرة بالاساطير التي حكم عليها بأنها غير معقولة . واذا ما بقي وفيماً لمذهب تعدد الآلهة ، فإنه قد صحّحه بتدريج ينتهي ، عند القعة ، باله كامل لامتناه يكون إحكام التأمل فيه اسمى مكافأة ممكنة . وهو يؤمن بخلود النفس والتقمص وهما ذبول لازمة لنظريته حول « المثل » وعلم الاخلاق . فالمثل ، وهي جواهر الاشياء والتصورات ، التي ليس مثل « الخير » بينها سوى الاله المطلق ، موجودة في عالم سام ، وليس باستطاعة الانسان ان يرى ، في العالم الارضي والمحسوس ، سوى انعكاساتها الغامضة . ولكن نفسه ، قبل ان تتجسد فيه ، قد عرفت العالم السامي والمثل . وهي بالتالي ، وفاقاً لصفحتها ، وبقوة متفاوتة ، تذكر هذا العالم وهذه المثل وتحن اليها . فبها نفسها ، وبالحبة التي هي خليفة بها ، وبالحرارة التي تشدها الى الفضيلة ، يتعلق امر تخلصها رويداً رويداً ، في تجسّدات متجددة متعاقبة ، من عالم الصور ، حتى تتقرب الى الله .

يستحيل التفكير هنا في استعراض المظاهر الكبرى الأخرى لرأي افلاطون : شغفه بالعوام وخصوصاً بالرياضيات ، نظريته حول الاعداد المرتبطة بنظريته حول المثل ، نظراته الاجتماعية والسياسية . فهو لا يزال في الدرجة الأولى ، خلال الاجيال المتعاقبة ، « المثالي » الذي يرى في الفضيلة وثبة نحو الألوهة ويجاب على الأسئلة التي شعر الانسان ابدأ بإقضاها بقوله المطمئن ان النفس ، اذا ما انفصلت عن الجسد الناقص والمحسوس ، تستطيع ان تجد ، في الموت ، وبفضل الموت ، فرصة للسمو الى عالم أعلى .

ولم يتردد ارسطو ، وهو تلميذ افلاطون ، في انتقاد وتخطي معلمه . فهو يرى ان المثل ، الحالة في الاشياء والكائنات ، تنحقق في المادة باتخاذها شكلاً يزداد تكاملاً بازدياد مطابقتها لعلته الغائية . فالمادة والشكل والغاية اذن ثلاث معطيات لازمة ، على تباين في اهميتها ، بسبب اختلاف مراتبها ، تستلزم الدرس لتدرك ادراكاً تاماً . فلا يحتفظ ارسطو بعد ، شأن افلاطون ، بالدور الأول للمحبة والحدس في سير الانسان نحو الحق بل للاستدلال والمجهود التجريدي . وهو لا يوحد بعد بين الله والخير بل بين الله والأدراك الخالص ، واذا كان كل شيء ينزع نحو الله بالارتفاع درجة فدرجة في سلم الكمال والعلل الغائية ، فان النفس لا تدوم منه الا بانقيادها للعقل ، وعلى العقل ان يرشد ، بين بقيصتين متناقضتين ، الى « الحد الوسط » الذي هو الفضيلة ،

فضلة عملية قبل كل شيء ، اذ ان مصير الانهيار يتحقق على الارض .

تبرز بذلك الهوة التي تفصل بين ارسطو وافلاطون . فقد ادعى الخلاف العميق في طبيعتها التي تقوم على الاحساس والخيال عند افلاطون ، وعلى الملاحظة الدقيقة عند ارسطو ، الى خلاف جوهري في المنهجية والروحية . فقد اراد ارسطو ان ينطلق من الواقع الحسي ليأتي بالبيانات الملزمة التي تسمو الى ارفع تجريد ، فجعل نصب عينيه اولاً ادراك هذا الواقع . اما المدرسة التي أسسها في اثينا في ملعب ابولون ليكاوس (*Le Lycée*) حيث افضت احاديثه مع تلاميذه ، في الممرات الضيقة ، الى اطلاق اسم « المتزهين » عليهم ، فقد كانت قبل كل شيء ، في ايامه ، مركز ابجاث منظمة على أعلى مستوى ممكن من الدقة والشمول . ففي جميع الحقول ، من علوم وادب واخلاق وسياسة ، انكب هو نفسه وحمل غيره على الانكباب على البحث عن الوقائع وتنسيقها ، سعياً منه وراء اسناد جذه في الاستدلال والتعميم على اسس وطيدة . وهكذا فانه يبدو بلا مرأ ، كواضع حجر الزاوية ، في العصور القديمة ، لاحدى القواعد الرئيسية في الاسلوب العلمي الحديث . وهو غير مسؤول عن الخطأ الذي ارتكب زمناً طويلاً في جعل تحقيقاته المرجع الاخير في كافة العلوم : فالروح نفسها التي سيرته كانت تقضي ان لا ينقطع غيره عن توسيع وتعميق تحقيقاته .

بفضل افلاطون وارسطو ، اللذين سيستمر أثرهما طويلاً ، حافظت فلسفة القرن الرابع على مستواها في القرن الخامس ، لا بل ان هذا النظام الفكري لم يسهم يوماً في سناء الحضارة اليونانية بمثل ما اسهم به اذ ذاك . وقد احتلت اثينا على هذا الصعيد ، منذ ذاك العهد ، مركزاً لم تعرفه من قبل . فسقراط وانتستين وافلاطون كلوا مواطين اثنيين ، وفي اثينا اسس الفلاسفة الأجانب مدارسهم التي اقبل عليها تلاميذهم . وقد ثبت واقع سيدوم طويلاً ، هو ان اثينا اصبحت عاصمة الفلسفة في العالم اليوناني .

منذ البداية نظر الاغريق الى الفلسفة نظراً الى علم العلوم المعد لأن يؤلف العلوم منها النتائج في تفسير اجمالي . غير ان التيار الفلسفي اذ ذاك قد سبق التيار العلمي اشواطاً بعيدة . وفي الواقع تأثر التيار العلمي بدروس نظرية عقائدية ، ان لم تكن لاهوتية . وعلى الرغم مما في ذلك من تناقض ، فان علم المعقولات (ما وراء الطبيعة) قد تكون قبل علم الطبيعيات ، حتى اذا اسندنا الى هذه الكلمة معناها الواسع جداً ، الذي ربما انطوت عليه في ذاك العهد كهدرس للطبيعة ، ويحب انتظار ارسطو حتى يولي بحث الوقائع المحسوسة الدقيق كل الامة التي يعطيها للعلم . ولكن هذا العلم قد اعاقه من جهة ثانية فقدان الاهتمام لتطبيقاته العملية ، ويبرز هذه الحالة الفكرية تنكسر المجتمع الراقي لبعض النشاطات المأجورة . ثم ان العلم قد اعوزته الادوات الفنية لأن الصناعة لم تكن ناشطة بعد ، وهي مساعد العلم وحافزه معاً . وبسبب افتقاره الى نهج اختبراري لم يتصوره تصوراً قط ، ربما لأن الوسائل المادية لم تتوفر له

لهذا العرض ، لجأ العلم الى التجريد او اقتصصر على الملاحظة . وقد حملته البزاعات السائدة في الفلسفة على ان يفضل ، لزمن طويل ، اولي الطرفين المفتوحين امامه .

فمن الطبيعي اذن ان تكون النجاحات الباهرة قد تحققت في حقل الرياضيات وملحقاتها . فالمدرسة البيثاغورية التي ما زالت ناشطة ، لا سيما في ايطاليا الجنوبية ، على الرغم من الصعوبات التي اقامها في وجهها عداء شطر كبير من الرأي العام ، قد بقيت امينة للابحاث الحسابية والهندسية التي جعلها مؤسسها متممة لعقيدة الطائفة المشايعة له . وقد برز في هذا الحقل اسمان ، كلاهما في القرن الرابع ، هما اسم « ارخيتاس » وهو بيثاغوري لا غش فيه كان حاكماً لطارتنا وطنه واسم « افدوكس » الكينيدي الذي افضت ابحاثه الى تقدم المعارف الرياضية تقدماً حقيقياً . ثم ان افلاطون نفسه ، الذي اطلق على احدى محاوراته اسم المهندس الاثيني « ثييتيت » والذي كان على صلة بالبيثاغوريين في الغرب وفي اليونان حيث انتشر مذهبهم ، قد اهتم اهتماماً حاراً بهذه الابحاث واحلها محلاً مرموقاً في اكاديميته . كذلك استهوى علم الفلك جميع هؤلاء الرياضيين الذين تفننوا في ابتكار النظريات حول نظام الاجرام السماوية . فجالهم التوفيق في احدى المرات . وقد سبق ان اشرنا الى الفكرة التي كونها اناكساغوروس عن الشمس . لاشك ، والحق يقال ، في انه قد اقتصر ، في الالمح الى ضخامة كتلتها المتأججة ، على القول انها « اكبر من البلوبونيز » ولكنه قد علّم ايضاً ان القمر شبيه بالأرض تقوم على سطحه ، على غرارها ، الوديان والجبال ، ويتلقى ، على غرارها ، نوره من الشمس . وقد قال احد بيثاغوريي القرن الخامس بدوران الارض والكواكب الأخرى حول نار مركزية . ولكن نظريته التي اسرع من جهة اخرى الى ربطها بنظرية ايقاع الافلاك الموسيقي لم تصادف اي نجاح . فان افدوكس قد انهمك اذ ذاك في ان يثبت ، بوسائل مختلفة ، دوران الكواكب حول الارض . وقد اصطدمت كروية الارض نفسها وقتئذ ببعض معارضات الممارضين . بيد ان هذا الرأي المنبتق عن البيثاغورية قد حظي اخيراً بانضمام اكثرية العلماء اليه . واذا كان الفضل يعود لأحد الايونيين من مدرسة « كيوس » في اثبات انحراف محور الارض على سطح مدار الشمس المستوي ، فبان ارخيتاس وافدوكس هما اللذان حققا الطريقة التي تسمح بحساب قياسات كوكبنا ، واخففا من جهة ثانية في تطبيقها عملياً .

والعلم الوحيد الأخير الجدير بالذكر هو الطب الذي نرى فيه النتائج الخيرة للبدء العقلي الكلاسيكي الذي هو مدين له بنشأته كعلم . اجل ، مارس الاغريق الطب ابدأ ولكن بشكليه : « الوصفات » الاختبارية وقد استعيرت احياناً من مصر الغنية بها جداً ، « والوصفات » الدينية او السحرية احياناً . ففي اماكن مختلفة كان للآله او الأبطال الشافين معابدهم المتبينة الشهرة ، وكان اوسعها شهرة معابد اسكليبيوس ، ولا سيما معبد ايندورس في الأرغوليد . وكان الطب فيها عن طريق هتاف الغيب ، فيأتي المرضى الى الكهنة ويطلبون منهم تفسير الاحلام التي ابعم الاله

بها عليهم انتناء ليلة قضوها تحت لرواقى ، ولم يكن هؤلاء الكهنة بالاغبياء . فان خبرتهم ، على الأقل ، قد سمحت لهم بارشاد المرضى الى طريق السفاء . فاستثمر الاطباء هذه الاختبارات العملية . ثم تأسست المدارس ، ولم ينفك ملوك الفرس ، منذ اواخر القرن السادس ، عن تعهد اطباء يونانيين في بلاطهم . فحصل في القرن الخامس المجهود المنطقي الذي يلفت الانظار بنسوع خاص في هذا الحقل .

وقد يكون احد اعضاء مدرسة « كروتون » في اليونان الكبرى اقدم على ممارسة التشريح . ومهما يكن من الامر فانه قد اكتشف ان الدماغ مركز الحس والفكر . وقد حدث خصوصاً ان ظهر « ابقرات » في مدرسة « كوس » وهي جزيرة في بحر ايجه قريبة من آسيا الصغرى . وكان ينتمي الى الاطباء الاسكليبيين السقي تباهت بانحذارها من الاله وخدمت معبده المحلي . ولكن منشأ الكهنوتي لم يمنعه من ان يخلق حقاً العلم الطبي بتطبيقه المبادئ العقلية دون غيرها على الطب . فأبعد عنه النظريات الفلسفية والخرافات التقوية ، واعلن ان ليس من مرض سببه فائق الطبيعة ، حتى داء الصرع الذي انتقد اسم « المرض المقدس » المشتبه به ، ناعماً اياه بكذب الممخرقين والجهلة ، وعني واوصى بمتابعة درس الانسان وحتى البيئة الطبيعية السقي لمس ما تنطوي عليه من اهمية بسلسلة من الملاحظات قام بها اثناء اسفاره . وان في اعتباره ابا الطب لحقاً واجب الوفاء .

بيد ان الجرأة التي ألهمت هذا العقل الحازم لم تتوفر لخلفائه . اصف الى ذلك ان المبدأ العقلي قد فقد مرتبته كنزعة سائدة . ولذلك فان القرن الرابع يبدو وكأنه ، في حقل الطب ، عهد ركود ان لم يكن عهد قهقري . واكتفى الاطباء الاسكليبيون في كوس بحرف تعليم معلمهم الذي نظروا اليه نظرهم الى عقيدة ايمانية . ولكن المعرفة الاختبارية وحدها قد تقدمت في المعابد حيث ازداد اقبال المرضى رايدي الاحلام الشافية . وقد اقتضى حافز جديد لبعث البحث العلمي ، فتوفر هذا الحافز ، على غرار كافة علوم الطبيعة ، في العهد التالي ، عن طريق اسلوب ارسطو - ارسطو ذاك الذي عاد الى خطاه السابق بأن نسب الى القلب الدور الذي سبق لاحد الكروتونيين ، قبله بقرن كامل ، ان تحقق من انه دور الدماغ .

ولو ان القلب قام مقام الدماغ ، والعاطفة مقام العقل ، لاستهوانا ، في اكثر من مظهر من مظاهر الحضارة ، ان نولي هذا التغير قيمة الرمز وان نمجد بواسطته ، دونما اعتبار لفوارق كثيرة ، التناقض القائم بين القرن الرابع والقرن السابق المكب على المنطق . ولعل ذلك لم يكن خطأ في كل الحقول ، ولكنه كان خطأ فادحاً في الحقل العلمي .

التاريخ
لا شك في ان التاريخ لم يكن علماً في ذاك العهد ، وهسل يمكن ان يكونه بكل ما للكلمة من معنى ؟ ولكنه مدين لاغريق العهد الكلاسيكي بوعي تدريجي الوضوح لهدفه وواجباته ، لمبادئه الفكرية والمنهجية ، وبكلمة مختصرة لمثله الأعلى

المكون بحيث ان التاريخ يصبح اقل بعداً عن الأنظمة العامة من اي نشاط فكري آخر .

كان هيكا ته المبلي ، في أواخر القرن السادس . كما سبق ورأينا ، قد برهن عن ملكته النقدية : « انني اكتب ما يلي لأنني اعتبره حقيقياً » . ولكنه يتعذر علينا ، لسوء الحظ ، الحكم على كيفية تطبيقه لهذا المبدأ . وبعده بخمسين سنة تقريباً يبدو هيرودوتس ، وهو اغريقي آسيوي قام بأسفار كثيرة وظهر في اثينا في بطانة بريكيليس ، وكأنه يعود خطوة او خطوات الى الوراء . فقد اعلن ان دوره يقتصر على رواية ما نقل اليه : « ان لمن يرى هذه الامور جديرة بالتصديق ملء الحرية في قبول قصص المصريين ؛ اما انا فأقصد من خلال تاريخي الطويل ان ادون كتابة ، وفاقاً لما سمعت ، ما قاله سواي » . ولكن مثل هذه التصريحات ، مهما بلغ من عددها وجزمها في كتابه ، يجب الاتخذه احداً . فالحقيقة هي ان هيرودوتس ادهى من ان لا يكون له رأيه الشخصي ، وغالباً ما نراه يستسلم للرغبة في الالماس اليه ، وحتى للتعبير عنه احياناً بجنس ترافقه الابتسامة الدائمة . فهو ، عندما يروي ، يضطر الى تقديم الشروح ، ويبدو كأنه يفسح مكاناً واسعاً لدور الألوهة في الاحداث البشرية . ولكن من لا تتدعه الظواهر يستطيع غالباً هنا ايضاً ، ان يتلس بعض الارتياح والتشكك ، اذ ان اضخم سذاجات هذا الرجل الذي يصعب ادراكه ، وهذا الراوي المدهش بمرونته ، نادراً ما تخلو من سخرية مستترة يتعذر اكتشافها على من يقرأ كتبه قراءة سريعة . ان مؤلفاته تأخذ بمجامع القلوب بملاحظات التصويرية حول اصل الشعوب وعاداتها ، وبصفاته الأدبية الرفيعة ، وبسحر الاستطرادات التي يستهويه اللجوء اليها دون ان تؤثر في تلاحم روايته ، وبسلطة لغة مستعذبة يستثمر مواردها ببراعة يتظاهرها من شأنها ان تغطي على الكثيرين وتحوّل غالباً دون تذوق فنه الرقيق . ولكن فضله الاكبر ، كمؤرخ ، يقوم في انه رأى وأدرك المعنى العميق لثلاثة ارباع القرن التي شهدت طفولته نهايتها . وكان الاول في ادراك العالم اليوناني الشرقي في الوحدة التي وفرها له الاتصال بين الحضارات ، والهجرة ، ومجازفات الفتح . وكان الاول ايضاً في النهوض بمحنة تاريخية شمر باهميتها وسعى جهده في اكتشاف اصولها ورواية نشأتها وتمعّب نموها . وتقوم وحدة عمله ، في الحقيقة ، في مصير الامبراطورية الفارسية نفسه التي نظر اليها نظرتة الى محاولة لم يسبقه احد في اعطائها هذا الشمول ، ترمي الى توحيد الشرق اولاً والسيطرة على العالم ثانياً ، تسير بخطى حثيثة من نصر الى نصر حتى تتحطم باخفاق الحروب الميدية . فهو من تلقاء نفسه ، دونما قدوة سابقة ودونما خبرة تاريخية مماثلة ، ودونما تأليف سابق او فلسفة سابقة للتاريخ ، قد ادرك وعرض ، ككل ، تطوراً على هذه الوحدة وهذه العظمة وهذا التعقيد وهذا التأثير ؛ وهذا في الحقيقة هو فضل وفخر ذاك الذي كان شيشرون محققاً في تسميته « ابا التاريخ » .

وقد كانت ثلاثون سنة كافية لأن يحقق التاريخ نجاحات أخرى عظيمة بالنظر الى تفوق « توسيديد » على هيرودوتس بقوة عقله وعمق تحليله السيكلولوجي ومعرفته لدوافع العمل

السياسي والعسكري . فبواسطة توسيديد تبدلت الذهنية بدلاً كلياً . فضلاً طرّف بعد ، ولا اساطير ، ولا تلكؤ ، ولا احقاد نيميسيس ولا توبيخ هتافات الغيب . وبعد اقضاء الحجاج التافهة والأسباب المباشرة ، اعطت الدولة والانسان وحدهما الاسباب الحقيقية ، الدولة بمنطقها العبوس وانانيتها المقدسة ، والانسان ، فردا كان ام خلية لكائن جماعي ، بأهوائه الفطرية : فالبصيرة الحادة هي التي تكتشف ترابط العلل والمعلولات . اصف الى ذلك ان موجبات الطريقة النقدية قد وضعت ونفذت بكل دقة : « اما بصدد الأحداث ، فلم ار من المواقف نقلها عن اي راوٍ يرويها لي او بحسب تأثيراتي الشخصية ، بل بمشاهدتها بنفسي ، او باجراء تحقيق دقيق جداً حيال كل نقطة ، اذا اتصلت بي عن طريق شهود آخرين . وكان البحث عسيراً لأن روايات هؤلاء الشهود للأحداث نفسها لم تتشابه قط ولأن الشهود ، وفقاً لعظفهم او لذاكرتهم يتسبون بين هذا الحزب او ذاك » .

الاعجوبة هي ان توسيديد يضع هذه الطريقة المألوفة ويجسر على تطبيقها على حوادث معاصرة له هو احد ابطالها ، لا بل احد ضحاياها . فهو اثني استلم قيادة عسكرية في اثناء حرب البلوونيز وحكم عليه بالابعاد للتكفير عن هزيمة عسكرية ، ولذلك فهو انما يريد فهم هذه الحرب وافهامها غيره عندما يرويها . فأتضح له باكراً جداً ان الصراع يهدّد بالخطر سياسة التوسع الاستعماري التي ينهض بها وطنه ، لا بل سياسة التوسع الاستعماري التي تنهض بها البولس في كيانها ، وتابع بشغفه العقلي المتكبر نفسه التصميم الاول الذي وضعه وبدأ بتنفيذه قبل ابعاده . فاستعاض بجهد العقلي الملح عن الفاصل الزمني الذي توفر لهيرودوتس بفضل تعاقب الحوادث التاريخية وبداية حياته كانسان .

ولكن طموحه يتخطى الى حد بعيد حرصه على الحقيقة حيال الاحداث التي يرويها . فهو يستهدف « الفائدة لكل من يريد الحصول على رأي حقيقي في الحوادث الماضية والحوادث المتشابهة او المماثلة التي ستسبب عودتها دوافع الطبيعة البشرية » ، وهذا هو الذي يقصده في كلامه عن « خير مكتسب دائم القرار » . وهو بذلك يعبر عن مفهوم للتاريخ لم يفقد حيويته حتى اليوم : مختبر لاختبارات قابلة للتجدد ، ومجموعة دروس ودليل للسياسيين والمفكرين . فثشان ، في الحقيقة ، بين هذه النظرة وتلك التي تستهدف ، اول ما تستهدف ، ارضاء نهم القارئ في بحثه عن آفاق اخرى ومغامرات قام بها آخرون .

نرى بذلك تفرد مقصد « توسيديد » وسمو صفته المنطقية المطابقة لنزعة عصره العامة . لا شك في ان ذلك يفضي به الى رؤية الواقع رؤية ناقصة : فهو يهمل القضايا الاقتصادية ؛ ثم ان عمق تجريده وتصميمه اللفظي على بلوغ ماهو دائم يحدّان عنده حتى المغالاة من دور ماهو عارض . ولكنه يبقى مثلاً فريداً للمؤرخ الفيلسوف او بالأحرى السيكلولوجي ، موغلاً في تشریح وتحليل بعض الحقول بثقة لم يبرهن عنها مؤرخ بعده .

كان من العسير جداً المحافظة على مستوى مثل هذا المعلم ، ولم يلبث الهبوط ان ظهر في القرن الرابع . اجل يبدو التاريخ حينذاك مثيراً لاهتمام عدد اكبر من القراء بسبب ازدياد عدد المؤرخين ومؤلفاتهم . ولكن الذوق والعقلية نفسها قد تغيرا ، بمقدار ما يجوز لنا الحكم على القليل مما نعرفه من هذه المؤلفات التي فقد اكثرها او تقتصر اليوم على شذرات لا اهمية لها .

كان كسينوفون ، بهذا الصدد ، اوفر حظاً من غيره ، لان وضوح واناقة وظرف اسلوبه الكتابي ، قد حافظت ، بإطالة شهرته ، على مؤلفاته المتنوعة ، من فقدان . ولكن هذا المؤلف الذي لم يكن مؤرخاً الا في فترات معينة والذي طرق مواضيع كثيرة تفصله مسافة بعيدة عن توسيديد الذي طمع هو في اكمال المحاولة التي توقفت بماته . اجل انه ذو بصيرة نيرة ، ولكنه لم يكن بعيد الغور في ادراك الاخلاق والحوادث . يتصف بفهم الحياة ويستوقف القارئ ويثير اهتمامه ؛ ولكن ميله الى تهذيب الاخلاق مما يثير الابتسامة ، على انه سطحي على كل حال ، كما ان تحيزه مما يثير القلق والريبة . ويبرز بعده اثر ميسيطر تركه ايزوقراط معلم البيان ، ويكون ثيوپومبوس ، من التطور الذي تم امام ناظريه ، رأياً كافي الوضوح لجعل من فيلبوس المقدوني الموضوع الرئيسي في أحد مؤلفاته . ولكن الشذرات التي لدينا من هذا المؤلف كافية لأن تبين لنا انه لا يتقيد بتأليف مدقق . ويصبح التاريخ بنوع خاص ، كما كتبه هو وايفوروس ، قطاعاً من قطاعات البيان ، يهدف الى الرهرة والحدة وتحريك العواطف ولا يأنف حتى مما هو مدهش وعجيب : فلم يلبث هو ايضاً ان انحرف في التيار العام . ولن يتحرر من هذا التيار لا بسهولة ولا بسرعة ، على الرغم من مثل ارسطو الذي كان ، في هذا الحقل كما في غيره ، يجمع الوقائع بانتظام ويوحى ، ان لم يؤلف دائماً ، سلسلة من كتب في مواضيع واحدة حول التاريخ الدستوري للمدن اليونانية . ولم يبلغنا من هذه الكتب سوى « دستور الاثينيين » الذي اكتشف بأعجوبة في اواخر القرن التاسع عشر . ولكن هذا الكتاب ، المؤلف بسرعة ، في موضوع عسير ، أدخل عليه الغموض نشره السابق المتعاقب الذي شوهته الروح الحربية والخرافات الدينية او الغطسة العائلية ، ابعد من ان يعبر عن روح نقدية مزهية عن الضلال . بيد انه ، بصرف النظر عن الخدمات التي يؤديها للمؤرخين المعاصرين ، قد اهاب بالمؤرخين القدامى ، الى الحذر من تفخيم في الكلام مستعذب آنذاك والنهوض بجهود استقصائي دقيقة . وهكذا فان ارسطو قد وجه التاريخ نحو العلم الواسع ، واذا لم يحرز فوزاً اكيداً ، فان اثر توجيهه سيظهر في العهد التالي .

الشعر : الشعر الفني
لم يشذ الشعر عن القاعدة العامة . ويمكننا ان نتتبع فيه ، بين الاجيال المتعاقبة ، تطوراً أقل بروزاً في الشكل منه في الروح
يسير بخطى حثيثة ويتفق ، في خطوطه العامة وفي اكثر من قمة من قممه ، مع التطور الذي يلحى مظاهر أخرى من الحياة الفنية والفكرية .

مهما بلغ من ازدهار الشعر الغنائي خلال العهد السابق ، فإنه قد تسامى حتى القمة في النصف الاول من القرن الخامس ، مع بنذاروس . فقد عبر هذا الطيبي المحافظ ، الذي مارس الغناء في خدمة المسلوك والمستبدن والعائلات الكبيرة النبيلة ، عن المثل الأعلى للمجتمع الارستوقراطي المتشرب التقاليد الدينية والمتجسد في مثال من امثلة الانسان وفي نوع من انواع الحياة . فهو يمجّد ، في الاناشيد التي تؤلف جوهر مؤلفاته المعروفة ، هذا الفائز او ذاك في مباريات الفروسية او العاب القوى . ويلجأ الى المزيد من الاساطير في مديحه ومديح عائلته ووطنه . ويدبج حكماً ملهمة من مبادئ ديانة واخلاق الزمن الماضي التي هي في نظره حقائق خالدة . ولا ينعم بهاء استعاراته الجريئة عن ان يكون ممثلاً للماضي في مستهل قرن سيفيخس جدّة في كل الحقول .

وهو على كل حال آخر اسم بارز في الشعر الغنائي اليوناني . وانّ في هبوط ، بل في زوال هذا الشعر ، اذا جاز التعبير ، شيئاً من اللغز . فقد كان من الممكن ان يعرف البقاء ، ويكتشف بسهولة مصادر الالهام ، في عاطفة الفرد المتحرر شيئاً فشيئاً من القسر مثلاً . ولكنه لم يسر في هذا الاتجاه الا بعد العهد الكلاسيكي ، ولعل السبب في ذلك انه لم يصادف الا في ذلك الحين ، لدى البلاطات الهلينية ، جمهوراً جديداً من الهواة المتذوقين خليقاً بأن يحلّ محل ذلك الذي حرّمه منه تطور المدينة المتزايد نحو الديمقراطية .

من المستحيل ، على كل حال ، الاّ نغزو الى هذا التطور الزواج المتزايد المسرح الذي عرفه الشعر المسرحي . ويستلزم الشعر المسرحي باستمرار ، من جهة ثانية ، اقساماً غنائية موكولة الى الجوقة ، ويظهر بالتالي كوريث وبديل الشعر الغنائي الصرف الذي هو اكثر انسجاماً مع اذواق الندوات الضيقة في المجتمع العالي . لذلك ليس من العجيب ان ينتج الشعر المسرحي روائعه في اثينا ، في المدينة التي اعطت المثل في الديمقراطية والتي لم تتفوق عليها اية مدينة اخرى في رونق الاعياد الدينية .

بين هذه الاعياد ، احيطت اعياد ديونيسوس ، التي تميزت بالتمثيل المسرحي ، بهباء خاص لا يمكن تعليقه اذا نحن لم نربط بينها وبين مفهوم المدينة الديمقراطية بالذات . فليس في الواقع شيء افضل من المسرح ، الذي ترتاده الجماهير بما فيها الفقراء الذين كانت الدولة تدفع لهم رسم الدخول ، لجمع شعب بكامله وتحريكه بمشهد واحد يثير فيه الضحك او القشعريرة من هول المأساة ، ووضعه ، بشكل جذاب حيّ ، امام معاضل هو مدعو للتفكير بها في مكان آخر غير الجمعية السياسية ، وبكلمة موجزة « لتجميل الحياة » عن طريق السموّ بالافكار ، وفاقاً لحلم رجال الدولة الديموقراطيين آنئذ . وهذا ما يفسّر ضخامة التضحيات المالية التي فرضتها هذه الاعياد على الخزانة العامة وعلى المواطنين الأغنياء المنوط بهم انتقاء الجوقات واكساؤها وتدريبها : وهذا ما يفسر ايضاً تزايد نجاح وعدد التمثيليات . وهذا ما يفسر اخيراً مجد المسرح

اللايني الذي بقي زمنًا طويلًا دون منافس والذي أدى القسط نفسه الذي أدله ابنية القلمة في القرن الخامس او مدازس الفلسفة والبيان في القرن الرابع في سبيل اشاع مركز الحضارة آنذاك ، مدينة الإلهة « اثينا » .

لا ريب في ان المسرح انتاج ادبي ، ولكنه يستلزم موجبات فنية مادية ايضاً تتعقد يوماً بعد يوم . كان المسرح في القرن الخامس مجرد صقالة خشبية تقام لايام معدودة ، ثم اتخذ ، في القرن الرابع ، وفي كل مكان ، شكل البناء الحجري الثابت ، وحتى الرخامي في بعض اجزائه ، واعدت لاستقبال الوف المشاهدين (١٧٠٠٠ في اثينا) . ويجهز لهذه الغاية منحدر احسدي التلال ، ويجري التمثيل في الهواء الطلق . ولم يؤمن المسرح المزيد من الراحة لان الجلوس على دكات مزعجة ، دون وقاية من الحرّ والمطر ، سحابة عشر ساعات في اليوم لمسدة ثلاثة ايام ، كان يقتضي في الحقيقة جلدًا عظيمًا . وقد حاول المخرجون ، في مكان التمثيل ، إيجاد الصورة الخادعة بالتزيين المصور الجزئي وبتحسين الأدوات المبتكرة التي كانت بدائية جداً . وكانت الجوقة التي تحول في القسم المستدير من المسرح امام الدكات ، موزنة المقاطع الايقاعية ، اكبر عناصر الفرقة عدداً - ١٢ ، ثم ١٥ للمأساة ، و ٢٤ للمهزلة . ولكن اهميتها تتدنى ، لأن عدد الممثلين يرتفع بسرعة ، منذ اواسط القرن الخامس ، من واحد الى ثلاثة : وبعد ان كان الممثل مجرد « مجيب » على الجوقة ، اصبح بذلك شخصاً يقابل اشخاصاً سواء ، كما ان الرواية دبت فيها الحياة بفعل التمثيل المباشر وتصادم الآراء وتعاقب الأسئلة والأجوبة السريعة .

بيد ان هذه التغيرات لم تحل دور استمرار مصطلحات مرتبطة بنشأة المسرح وظروفه المادية على السواء . فنحن لا نعلم مثلاً لماذا توجب على كل مؤلف ، في مباراة المآسي ، تقديم ثلاث روايات فاجعة كان من الضروري ، لمدة قصيرة ، ان تؤلف كلاً واحداً . ولكن الرغبة في ان يكون لديونيسوس نصيبه من التمثيليات المعدة لأعياده فرضت على المؤلف ان يرفق هذه الروايات الثلاث بـ « مأساة - مهزلة » مكرسة لأحد احداث اسطورة الاله . ولنضف الى ذلك مثلاً آخر هو تقنع الممثلين . فعند الشعوب المختلفة ، وحتى في ايامنا ، عند الشعوب البدائية ، درج استعمال القناع في الاعياد الدينية او استعويض عنه باعتماد الملونات المختلفة على الوجه . انه ينزع عن الممثل شخصيته وفرديته وينتزع من الواقع اليومي ويرفعه الى مرتبة المثال العام ، ويسهل الابهام الذي يتيح له لعب ادوار مختلفة في التمثيلية الواحدة او دور ليس الانسان معداً له بالفطرة كدور الاله او البطل او المرأة - اذ ان العادات لا تجيز للمرأة مثل هذا العرض امام الجماهير . ثم ان القناع يضخم الصوت ويجعله اكثر جلاء لجمهور غفير . فليست الاسباب اذن ما يعوزنا لتعليل هذا الاستعمال ، وهو واحد من كثير غيره ، الذي تدهشنا غرابته اليوم .

لا يتجلى المسرح اليوناني بكل معانيه الا اذا اعيد الى جوّه الديني والاخلاقي وحتى

السياسي ، ووضعت في إطاره المادي . غير انه يرتفع ، اذ ذاك ، لاسيما المأساة ، الى مستوى القسم الجامعة والحالدة .

ليس في الحقيقة ما يشير الاعتبار كروية الشعراء مؤلفي
المآسي ، في اثنى القرن الخامس ، يعرضون امام ضمير
المشاهدين اعظم المعاضل اهمية . فبفضلهم ادى المسرح قسطه
الرئيسي في مهمة التربية الفكرية والاخلاقية التي استلزمها المفهوم البريكليسي للديموقراطية .
وهم يقتبسون مواضيعهم ، على العموم ، من الاسطورة الخرافية . وقد نامس عند بعضهم ، لاسيما
في البداية ، ميلا الى معالجة الاحداث القريبة العهد . واذا لم يكن اسشيل اول هؤلاء الشعراء
المؤلفين ، فانه كان الاخير في الاستسلام لهذا الميل ، على الرغم من قسوة التجلي البطولي في
روايته « الفرس » التي تستعيد ، بعد ثمانى سنوات ، معركة سلامين التي اشترك فيها كما اشترك
في معركة ماراثون حيث قتل اخوه . غير ان هذا الميل ، الذي كان من العسير جداً ان يألف مع
ميزة التمثيل المسرحي والفكرة الدينية فيه ، لم يبرز الغلبة ومال لبث ان انتهى الى الزوال .
وقد وفرت العقيدة الخرافية ، على كل حال ، بما يتخللها من فوارق كثيرة يختار الشاعر منها
بلء حريته ، ينابيع حية لا تحصى للالهام الشخصي والتفسير الشخصي ايضاً . فالأسطورة
الواحدة ، كاسطورة « اورستس » مثلاً ، تتناولها على التوالي المعالجات الكثيرة المختلفة ، فتثار
حولها مناقشات هي ابعد من ان تنتهي بتوحيد وجهات النظر المختلفة . وتعتبر هذه الفوارق ،
شأن ميزة الشعراء الفردية ، عن التطور الفكري والاخلاقي السريع الذي طبع الاجيال
اللاحقة .

ان اسشيل الذي حارب في ماراثون يمثل الماضي والخضوع التقليدي لقوى فائقة الطبيعة : فهو
قد ولد في الفسيس وامتلات روحه بتدين قديم . وهو يقلل الاعتقادات القديمة ويظهر ، بعظمة
منقطعة النظير ، تأثير الالهة على المصير البشري تأثيراً مباشراً فعالاً لا يبالي للعدل والرحمة .
ومن حيث خضوع هذا المصير للعنات الوراثية ولأثر وحسد الآلهة ، فانه ينتقل من امتحان الى
امتحان . ويكاد لا يجد بعض التعزية الا في الشفقة التي تثيرها مصائبه والتي نادراً ما تفعل فعلها ،
على كل حال . وقد اخذت تظهر ايضاً ، بكل صعوبة احياناً ، فكرة تعليل العقوبة بالكبرياء .
ولكن ، اذا حصل اورستس على الغفران بفضل محكمة « الاروباغوس » وتمكن من تقسيم
الذبيحة الى الالهات بنات الارض ، فان « بروميثاوس » ، « التيطان » المحسن للبشر ، سيعرف
العذابات الابدية التي استحققتها له جسارته كثائر والحكم المبرم القاسي الذي صدر عن آلهة
ارفع من العالم وابعد بالتالي من ان يبرهنوا عن روح انسانية . وهكذا فان مذهب اسشيل
قوامه الهول والتواضع .

ولكن الامور قد تغيرت مع سوفوكليس . اجل ان هذا لا يهمل شيئاً من التدين التقليدي ،

ولكنه لا يحتفظ في مآسيه بالمركز الأول للآلهة . فالقدر يبقى سيد الانسان ويفرض عليه الانقياد الدائم ، لا بل الذل نفسه امام قساوته القسوى . ولكن القدر يصبح اقل ظموراً وتضييقاً ، واكثر انفتاحاً ، في الوقت نفسه ، على مفاهيم العدل والمسؤولية . اضاف الى ذلك ان ما أورده سوفوكليس في مأساة « انتيغون » لم يورده عبثاً : « هنالك اشياء مدهشة كثيرة ، ولكن واحداً منها لا يوازي الانسان » . فان سيكولوجيته تتعمق في الاستقصاء وتنوع متدرجة من العنف الحاد حتى ارفع العواطف رقة . وبسلا من ان يتصلب الاشخاص عنده في مخالفة بعضهم بعضاً ، شأنهم عند اسشيل ، فانهم قد اخذوا شيئاً فشيئاً بتقديم البراهين والحجج ، رغبة منهم في التعريف عن انفسهم تعريفاً اكثر مرونة وفي ابعاد التهم الملصقة بهم . ومن حيث انه عاصر بريكليلس الذي زامله في القيادة العسكرية في السنة ٤٤٠ ، فانه يدخل على لاهوته خبرة اوسع تنوعاً وارتفاع انسانية وينقل في الوقت نفسه الى الشعر فن فيدياس المتميز بالجلال والبساطة معاً .

ثم يبرز ، على غيرية كبيرة ، اوريبيد الذي يفصله عن سوفوكليس فرق خمسة عشر سنة في السن فقط ، هي في الحقيقة ثورة فكرية ، ثورة السفستين . فهو لا يتردد في الانتفاض بصراحة على الاعتقادات القديمة وفي انتقاد التقاليد المستبعدة او المنافية للاخلاق . فليست الاسطورة في نظره سوى حجة فقط وتقتصر الرواية المستندة اليها على مستوى الحياة العائلية . وقد تمتع بمخيلة بالغة الحصب وباحساس فائق الحدة في اشد الظروف عنفاً ادهشاً وهزاً مشاهدي هذه المآسي التي اصبحت مآسي بورجوازية او ريفية احياناً . لا بل يحدث احياناً ان يسمو احقر الناس ، نبلاً وفضيلة ، على الابطال والبطلات الذين تحركهم بالمقابلة الاهواء البشرية والضعف البشري . فاطار رواية « اليكترا » ليس قصر ارغوس الملكي ، بل قرية وضيفة في الارغوليد تكون فيها ابنة آغاممنون زوجة لفلح غفل هو نفسه الذي يتجه اليه عطف الشاعر بصراحة . وقد ذهب اوريبيد الى ابعد من ذلك . فمن حيث هو « الصدى الزنان » لزمانه ، فانه يلم على الاقل بالمناقشات الفلسفية الكبرى ، وحتى ببعض المعاضل السياسية الراهنة ، مضطراً احياناً لايقاف سير احداث الرواية ، ومبرهنناً على الدوام عن بصيرة دقيقة اخذت بجماع قلوب الهواة انفسهم . ويقال ان سقراط قد داوم على حضور كافة تمثيلياته . ولا شك في ان المتمسكين بالتقليد قد نادوا بالويل والثبور ، ولكن ليس من استجابة افضل لاذواق الجمهور الاثيني الجديدة من مآسي اوريبيد .

ولدت المهزلة ، شأن المأساة ، من ظرف اعياد ديونيسوس نفسها ، « المهزلة القديمة » ولكنها استهدفت إثارة الضحك . ولذلك فهي منذ البدء قد نعتت بحرية اوسع . وهي ليست على كل حال شبه احتكاك اثيني ، مما ادخل عليها المزيد من التهور . وكان هنالك في الواقع ، في النصف الاول من القرن الخامس ، مهزلة « دورية » *Dorienne* في سيراكوزا ، اشتهر « ابيخارموس » مثلها الرئيسي ، استوحت مواضيعها من الحياة الشعبية والملاحظة

اليومية ، ثم استمرت في التمثيل « اليمائي » . وليس من ريب في انها لم تبق دون تأثير في التطور اللاحق الذي عرفته التمثيليات . ولكن هذه المؤلفات قد فقدت كما فقدت مؤلفات الهزليين الاثنيين المعاصرين : فلا شيء يمنع بالتالي ان تكون « المهزلة القديمة » في نظرنا ، مهزلة ارسطوفانوس بالذات الذي غطى نشاطه شطراً من القرن الخامس وآخر من القرن الرابع .

ان هواء ومداعبته حتى وغلاظته ايضاً لا تعرف حداً . فهو يلجأ بصورة طبيعية جداً الى المداعبات البذيئة وحتى الى القذارات نفسها . ويردري بالآلهة الذين يصورهم في اوضاع مضحكة احياناً . ويتناول ، شأن الهزليين الآخرين الذين تهكموا تهكماً لا ذعماً من بريكليس نفسه ، الرجال الاحياء المعروفين المشهورين الذين يصورهم صوراً هزلية تعجز قوة الحيال فيها عن ان تنسي ما فيها من تظلم فطيع . ويظهر في النظام الديموقراطي معارضاً رجعيماً . وينادي بالسلام حتى في خضم الحرب القومية . وينتقد اوريبيد وجرأته الاحادية ، ولكنه لا يمتنع عن تقليد رفته المجددة . ولا يهتم للتناقض ولا للشطط . ولكن هذه الغرابة المنفلتة ، وهنا سر المعجزة ، يرافقها شعر بالغ الرقة واحساس فائق اللطف بحالات الطبيعة التي يعبر عنها بمهارة نادرة في السبك والايقاع . وليس سوى مؤلفاته المدهشة ما يتيح ادراك مرونة الفكر اليوناني والمناقضات التي اصطدمت فيه بميوعة الحياة . فكيف يتذوق هذا الشعب ويتوج مثل هذه التمثيليات ، وجب ان يكون قريباً من الارض ، على انه كان خبيراً سريع الاحساس قادراً على الضحك الكثير والتأثر بمعايشة ذوي الاحساس الرقيق ومستعداً للابتهاج باللواذع الموجهة الى آراء ورعامات يحضها ثقته في غده وامسه . اجل لم يكن منسككاً ولكنه ، في يوم عيد ، طيب له استقبال مناقضاتٍ شعرٍ بغليانها في نفسه دون ان يضطرب منها .

المسرح في القرن الرابع
في القرن الرابع بلغ تذوق المسرح الذروة . فتعددت الابنية المسرحية في القرن الرابع . ونمت شعبية الممثلين نمواً بالغاً ، وزاد الانتاج زيادة كبيرة لا سيما وان شعراء كثيرين قد برزوا في غير ائتنا . وعلى الرغم من ذلك فقد كان التطور عظيماً .

هبطت المأساة هبوطاً لن ترتفع بعده . ولن يكفي لتجديد قوة الحياة فيها ان يتفرغ لها احد عظماء هذا العالم ، مثل دوبيس المستبد في سيراكوزا ، ويفوز دون دهشة بالجائزة في ائتنا في السنة ٣٦٧ . فمؤلفات القرن السابق العظيمة تنوء بسحرها على المؤلفين وتضطرهم الى التقليد . لذلك فان الجمهور يستطيب تكرار التمثيليات السابعة ولا سيما تمثيليات اوريبيد التي تعرف شهره لم تعرفها من قبل : وقد سبق لبعض الاثنيين الساقطين في ايدي الاعداء ، ابان حروب البلويونيز ، ان كانوا مدينين بنهاية عبوديتهم لمعرفتهم بعض المقاطع لهذا الشاعر ، وسنكون مؤلفاته ، بعد ذلك بقرن تقريباً ، احدى مطالعات الاسكندر المفضلة . وقد فرض القانون الاثيني ان تمثل رواية ، من لائحة مقررة ، خلال مباريات المسامي المفعجة . فكتب بذلك البقاء لهذه المباريات .

اما المهزلة فقد احتفظت بحيوتها ، ولكنها تحولت تحولاً عميقاً . فان المركز الذي احتله فيها الجدل الكتابي الراهن قد طبع بالهرم والبطلان الروايات القديمة التي كان من شأن فسادها العارم ، على كل حال ، ان يبدو منذئذ معشراً ومشيناً . فأصبح من الضروري ان يؤتى بشيء جديد اكتشفته المهزلة « المتوسطة » أولاً والمهزلة « الجديدة » ثانياً في طريقة ابيخارموس وحق في اوريبيد نفسه ، الباعث الأول للمأساة البورجوازية . وقد استلهمتا الحياة الاجتماعية في عهدهما وخلقنا نوعاً جديداً سندرسه في الصفحات التالية عند كلامنا عن « مينندروس » الذي يكفي اسمه وحده ، مع اسماء « بلوت » و « تيرنس » وحق « مولير » التي تردّد صدى اسمه ، ليزكرا بمن انتسب اليه بعده بزمان طويل .

اصول ونشأة البيان
حظيت الفصاحة ، شأن المسرح ، بتقدير اعريق العهد الكلاسيكي وانتجت روائع مدهشة .

كان ميل الاغريق للخطابة متأصل النبل فيهم: فهو يُردّ دونغاريب ، الى نجابة عنصرهم العميقة . فالمثل الأعلى للبطل الهوميروسي يوجب عليه اثبات الخبرة نفسها في تدبيج الكلام وفي استعمال السلاح . وقد عمدت كل الأنظمة القديمة ، ملكية كانت ام ارستوقراطية ، الى تعميم مبدأ المناقشة في المجالس والجمعيات . ولكن فضل الانظمة الديمقراطية ، التي رفعت عدد اعضاء هذه الاجهزة ، انها جعلت من هذه المناقشات عاملاً حاسماً . فهي قد احتفظت بالسيادة الفعلية لجمعية عموم المواطنين وخولت حق البت بالدعوى الهامة ، العامة او الخاصة ، لحلفين شعبيين لا يقل عددهم عن بضع مئات من المواطنين . وهكذا في المدن التي غدت اثينا قدوة لها في القرن الخامس ، اصبحت الحياة السياسية كلها ، وخطر كبير من المصالح الفردية ، خاضعين للاقتراع الذي يلي المجادلات الخطابية . ولذلك كان من حق ديموستينس ان يتكلم عن دول « يرتكز الدستور فيها على الخطب » ، وهو لم يكن ليقصد تحقير هذه الدول لانه يستهدف بذلك وطنه في الدرجة الاولى . وقد بلغت اهمية الكلام شأواً لا نستطيع معه استغراب نجاحاته المستمرة التي تسمو بالفصاحة الى مرتبة الانواع الادبية : فالكمال الفني فيها يسير بحاذاة الكمال التقني الذي يؤول في النهاية الى تحويل الفصاحة الى بيان .

يتعذر علينا في الحقيقة ، لمدة طويلة ، ان نبدي رأينا في هذا البيان . فنقدّر ان تيمستوكليس قد تمتع ، بغية التوصل الى السيطرة ، بموهبة خطابية ماهرة . ولكنه لم ينشر شيئاً قط ولم يدون احد كلامه . اما بريكليس ، فيستحيل ان نركن الى الخطب التي ينسبها اليه توسيديد والتي هي في الحقيقة من وضع المؤرخ . فالتصرف الفوري كان كافياً آنئذ للخطباء .

ولكن الرغبة في زيادة فعالية هذا التصرف ، في منتصف القرن الخامس ، هي التي حملت بعضهم في سيراكوزا ، حيث حل النظام الديمقراطي محل الاستبداد ، على محاولة اكتشاف وتعميم اسرار النجاح . في البدء كان السفسطيون ، الذين جاء العديد منهم من الغرب ، ابتداء من

« غورغياس » الصقلي الشهير ، اساتذة في علم الفصاحة ، وقد انبثقت الثورة الفكرية التي مهدوا لها الطريق انبثاقاً مباشراً من تعليمهم الخطابي الذي نشره في المدن المختلفة . فهم لم يكتفوا بالمناداة بالصنعة الانشائية وبنشر بعض الصيغ الكتابية بسبل رغبتوا في ان يظهروا ايضاً ، واطهروا فعلاً ، كيف تقلب البراهين على الخصم وروّضوا بالتالي عقول تلاميذهم ومرنوم على عرض كل قضية باجلى بيان واغوى استالة وعودوم اكتشاف الإجمال والخلاف في البراهين والآراء . وهكذا فان الروح النقدية التي تشك في كل شيء قد ولدت من الحاجات العملية التي تطلبتها المجادلة امام الجمعيات والمحاكم الشعبية .

اقبل الاثينيون باعداد كبيرة على دروس السفسطيين ولم يلبثوا ان اصبحوا ، منذ اواخر القرن الخامس ، اساتذة في الفن الجديد . وتعود الى هذا العهد الخطب الاولى التي نشرها واضعوها الراغبون في استمرار اثرها ولا سيما في اركاز شهرتهم : فاصبحت اثينا في القرن الرابع مدينة مدارس البيان كما كانت في الوقت نفسه مدينة مدارس الفلسفة .

نرانا لأول مرة - وللامر اهميته في تاريخ المجتمع والاخلاق - امام الاساتذة ومعدو الخطب في اثينا نشاط فكري وعمل حرمينين بتوفير الأرباح الطائلة للذين يمارسونها . فان عادة مكافأة الاستاذ على دروسه التي ادخلها السفسطيون وانتقدوها خصوم تعاليمهم الاخلاقية والفلسفية قد درجت بسهولة كلية في تعظيم البيان الذي يؤمن لطالبيه عدة نافعة لكسب دعاويهم الخاصة . وكان هنالك اكثر من هذا ، فاذا كانت الاصول القضائية تمنع اللجوء الى المحامين ، فانها قد سمحت باللجوء الى « سينغوروس » قد يكون خطابه اكثر استفادة من الفريق ذي المصلحة في الدعوى . وقد سمحت للمتقاضى ، بنوع خاص ، بان يستعين « بيمعد الخطب » الذي يحضر له سلفاً خطاباً يلقي امام المحكمة والذي يتقاضى بحكم الطبيعة اجر عمله . وهكذا فان الخطباء المتهنين اذا ما بلغوا الشهرة ، كانوا يجمعون الثروات . وهكذا ايضاً فان ديوستنس قد استعاد الثروة التي بددها اوصاؤه بفضل هذه الطريقة ، لا بفضل الذهب الفارسي والاختلاس الذي اتهم به . ولكنه ، في اثينا القرن الرابع ، لم يكن الوحيد الذي عرف النجاح المادي .

اقبل الاساتذة والطلاب من الخارج الى المدينة التي تحتل فيها الفصاحة مثل هذا المركز . فبين الخطباء « الاتيكين » الذين احتفظ الاسكندرليون باسمائهم في « قانونهم » اي في مجموعة مثلهم ، يوجد اجانب مقيمون كثيرون : فان ليزياس وايزيا ودينارخوس ينتسبون الى سيراكوزا وخلقيس وكورنثوس . واذا اتصف الاولان منهم بالبساطة المقصودة وبالوضوح المستلطف في افشائهما وبالحدة في اقامة براهينهما ، فهذا لا يمنعها من ان يكونا مثالين لما اطلق عليه اسم الطريقة « الاتيكية » حيث تسمو الملاحظة الاخلاقية الدقيقة والظرف اللطيف والمرونة المستسهلة الى مرتبة الفن العاري الذي يستغويننا دائماً ويقنعنا احياناً . ولذلك فان

مؤلفاتهم ، تضاف اليها « المرافعات المدنية » المعاصرة التي لا تجزم في صحتها والتي تظهر في مجموعة خطب ديموستينس ، ليست فقط شهادات ذات أهمية رئيسية حول القانون المدني أو التجاري وحول الاخلاق في المجتمع الاثيني . فهي تعبير حي عن مثل ادبي اعلى يستجيب ، على الرغم من وفرة زنبهم ، لذوق سليم بالغ الرقة .

كان لبعض الخطباء من جهة ثانية طموح اسى فتركوا اثراً اطول بقاء .
البيان - الفلسفة
ايزوقراط
خضع ايزوقراط بينهم الى شواغل جمالية ملحة اضطرته الى صرف
الافاق الطويلة في تحضير اقل خطبه أهمية التي نشرها دون ان يلقيها
لانه لم يستطع التكلم امام الجماهير او لم يتجاسر على ذلك . فذهب الى اقصى حد في البحث عن
التناغم في خطابه الكامل وفي كل من اجزائه حارصاً على توفير الوزن في جملة المتضادة وعلى
تحاشي التقاء حرفين صائتين فيها . فابعد بذلك نوعاً جديداً مدعوأ لان يدوم ما دام العهد
القديم ، اعني به الخطبة الخيالية التي تستهدف الابهة . وغدا باتقانه لتوازن توسيع فكرته وحسن
انتقاء مفرداته القدوة المثالية « للخطباء » الذين كان دورهم الفكري عظيماً جداً طيلة
قرون وقرون .

فالمبنى جوهرى في نظر ايزوقراط . وقد لجأ هو نفسه الى استخدام الفصاحة لتوجيه مصائر
اليونان جمعاء . فقد بشر دوماً ملل بالمصالحة والتهدئة بين الاغريق وبالحرث الجماعية ضد الملك
الفارسي . اجل ان هنالك ، في نظرنا ، كثيراً من الحشو في العدة الميثولوجية والتاريخية التي
ينقل عنها جزءاً كبيراً من براهينه ، ولكن كل ذلك لم يكن بعد ميتاً لقرائه . لا بل ان في
مؤلفاته مقاطع كثيرة تكشف لنا عن قدرته على التدقيق وحتى على الفراسة في تحليل الآفات
التي ألمت باليونان آنئذ وتحديد الاتجاه الممكن ان يبحث فيه عن الدواء . فليس اذن هذا الخطيب
الاول بين الخطباء كاتباً سياسياً يستهان به ، على الرغم من انه يتعذر النظر اليه كمفكر كبير .
وليس هذا ما يقصده عندما يدعي انه « فيلسوف » وينسب الى فلسفته ، التي ليست سوى
الفصاحة كما هو يفهمها ويمارسها ، قيمة تهذيب فكري وحتى اخلاقي . فهو يعتبر ان الكلام هو
مزية الانسان الاولى وان استخدامه استخداماً كاملاً لضمانة لفكر كامل وفضيلة كاملة وحضارة
كاملة . وان اتقان الكلام يؤول بالضرورة الى اتقان التفكير ، لانه يرغب على البحث عن الافكار
ووزنها وتوضيحها بانتقاء المفردات وتنظيمها منطقياً وجمالياً . فعمل البيان اذن مفتاح كافة
التعاليم : انه في الحقيقة يتناولها جميعها لانه يشتمل على جميع الصفات الانسانية . ومن ثم فان
ايزوقراط يجعل نفسه مزاحاً لافلاطون ، وقد تكونت من تعليمه نظرية تربوية لم تدم دوام
الحضارة اليونانية فحسب ، بل دوام الحضارة الرومانية ايضاً ، وقد استمرت آثارها بادية حتى
يومنا هذا . فان تعلم اصول البيان وممارسته بممارسه طويلة قد اعتبرا بمثابة التتويج للتربية الفضلى .
فهل من غرابة والحالة هذه في ان تطبع عقول الرجال المثقفين بمثل هذا الطابع ؟

لم يمنع ذلك من ان يكون للفصاحة الاثينية، في القرن الرابع ، رجالها ومؤلفاتها في العمل المدني والصراع المباشر . فقد وجه بعض الخطباء ، فعلاً، سياسة المدينة تاركين لرجال الحرب الممتننين مهمة تنفيذها. ولم تكن هذه حال القرن السابق عندما كان بريكلينس يوحى مراسيم الجمعية ويأمر الاساطيل : ان النجاحات التقنية في هذين الحقلين من النشاط قد فرضا التخصص .

ان اعظم خطيب بين هؤلاء الخطباء الذين اثروا مباشرة بكلامهم هو ديموستينس ، بسلا منازع . قد يمكننا مناقشة الرجل السياسي ، لا بل الرجل فحسب ، وبعد نظره ونزاهته . فان اسشين يفوقه مرونة وظرفاً ، كما يفوقه « هيبيريوس » فناً اكثر استسهالاً وحذاقة ، ومع ذلك فإنه سيد الجميع . ففصاحته عمل وحياة ومنطق وحما . تقنع بقوتها وعمقها السيكلولوجي وبراعتها السهلة التي لا تتم عن الجهد وتأخذ بمجامع القلوب برصانتها التي تعترضها نزاعات تمزق القلب . امام هذا القدر من الكمال الطبيعي والقوة المؤثرة ، ينقاد بعض القراء العصريين انقياداً للاخذ بوجهات النظر التي دافع عنها ديموستينس : فكيف الحال ، كما سبق وقال اسشين المهزوم امامه ، « اذا ما سمعتم النمر بلحمه ودمه ؟ » ؛ واذا ما وصف خطيب سواه بهذا اللقب فيما بعد ، فلم تتوفر عند غيره ، وایم الحق ، ميزة خلق الاضطراب في انفس قرائه طيلة القرون المتعاقبة .

لاشك في ان طابع المأساة الذي طبع به مصير ديموستينس قد أسهم نهاية الكلاسيكية اليونانية في اعلاء عظمتهم . فمن حيث انه وجه صراع وطنه ضد مقدونيا ، جرع السم كي لا يقع حياً في ايدي اعدائه . وبذلك يتحد موته ذاتياً بهزيمة « البولس » ، اي الحضارة التي كانت البولس لها السند والاطار ، والمشجع والمنفتح . قد حققت هذه الحضارة اشياء عظيمة ورفعت الانسان عقلياً . وتسامت الى قمم لا تستطيع اية هزيمة عسكرية ان تهويها منها . فهل كان بإمكانها أن تحافظ على قوتها الخلاقة نفسها ، يا ترى؟ وهل كانت 'قدّر' لأثينا ، لو انتصرت ، ان تستمر في اغناء تراث الانسانية الثقافي؟ انه لمن الجراًءة بمكان أن نغامر في اثبات ذلك أو نفيه . يجب علينا الاكتفاء بأن نلاحظ ان القرن الرابع كان أقل خصباً من القرن الخامس وان أثينا أبعد آتئذ من ان تلعب ، في حياة العالم اليوناني الطبيعية ، دور التوجيه الذي لعبته فيما سبق . فالفلسفة والفصاحة هما الحقلان الوحيدان اللذان أظهرتا العبقرية اليونانية فهماً ، داخل أثينا ، حيوتها بمؤلفات من المرتبة الاولى . وهذا لعمرى ليس بالقليل ، ومن العيب التساؤل عما اذا كان يوازي البارثون وفيدياس ، ومؤلفي المآسي العظام وتوسيديد . ان معركة « خيرونيا » التي سلمت أثينا واليونان الى مقدونيا ، واخفاق الثورة التي انفجرت بعد الاسكندر ، يقفلان نهائياً عهداً من تاريخ الحضارة . وبين هذين الحدثين فتح غزو الشرق عهداً آخر جديداً .